الفصل الثَّاني
غايات كلٍّ من أهل الحقِّ وأهل الباطل

أولاً: غايات أهل الحقِّ:

لأهل الحقِّ غايات يسابقون بها أهل الباطل، لإبلاغ تلك الغايات إلى عقول النَّاس لتستقرَّ فيها وتؤمن بها، وتصبح بذلك عقول حقٍّ.

ولأهل الباطل غايات يسابقون بها أهل الحقِّ لإبلاغها إلى عقول النَّاس لتستقرَّ فيها ، وتستسلم لها ، وتصبح بذلك عقول باطل.

أما غاية أهل الحقِّ العليا، فهي: (رضا الله ﷻ)، والتي تتفرَّع عنها كلُّ الغايات.

فإن أهل الحقِّ يتحرَّون هذه الغاية العليا الشَّاملة لكل الغايات. لأن الله تعالى هو الحقُّ المبين .

فهذا نبيُّ الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يحكي الله ﷻ قوله: ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾ [طه] .

وقال ﷻ عن دعاء سليمان بن داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النَّمل] .

وقال ﷻ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ [البقرة] .

وقال ﷻ عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه من المهاجرين والأنصار ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ [الفتح: ٢٩] .

وقال ﷻ بعد أن ذكر ما زيِّن للنَّاس من متاع الحياة الدُّنيا: ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾ [آل عمران].

وقال ﷻ: ﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٦٢]

وقال ﷻ عن حزبه: ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة] ... وغير ذلك كثير في القرآن.

فأهل الحقِّ يرجون من كل أعمالهم الصَّالحة رضا الله ﷻ، ومن أجل أن رضا الله ﷻ هو غاية أهل الحقِّ، يأتي خطاب الله ﷻ لهم -بعد أن يُسكِنهم جنَّته ويعطيهم فيها فوق ما يأملون- مخبرًا لهم بإحلاله هذه الغاية العظيمة عليهم، كما في حديث أبي سعيد الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: [**إِنَّ اللهَ يَقُولُ لأَهْلِ الجَنَّةِ يَا أَهْلَ الجَنَّةِ. فَيَقُولُونَ لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ. فَيَقُولُ هَلْ رَضِيتُمْ فَيَقُولُونَ وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ فَيَقُولُ أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُونَ يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا**][1].

من هنا فإن سعي أهل الحقِّ لكسب عقول النَّاس إنما يبتغون بذلك الوصول إلى رضا الله ﷻ، والاطمئنان به والسَّعادة بطاعته، إذ كلما كثر أهل هذه الغاية زادت في الأرض هذه المعاني التي ينشدها كل النَّاس.

وإذا كان رضا الله هو الغاية العليا الشَّاملة لكل غايات أهل الحقِّ، فما الغايات التي تتفرَّع عن هذه الغاية وتعتبر وسائل لتحقيقها - وإن كانت كل واحدة منها غاية بذاتها - ؟

---

(١) متَّفق عليه: أخرجه البخاريُّ برقم (٦٥٤٩)، ومسلم برقم (٢٨٢٩).

* الغايات المتفرِّعة عن الغاية العُليا :

الغاية الأولى: تبليغ رسالات الله إلى النَّاس.

أي إيصالها ببراهينها وحججها، حتى تكون واضحة بيِّنة تفهمها العقول فهمًا تقوم به الحُجَّة على أصحابها، وهذا هو البلاغ المبين الذي هو وظيفة الرُّسُل عليهم السَّلام، ووظيفة أتباعهم.

قال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾[الأحزاب].

وقال ﷻ: ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الجنّ].

وكان الرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام يعلنون لأقوامهم أنهم جاءوهم لتبليغهم رسالات الله إليهم.

قال ﷻ عن نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأعراف].

وقال تعالى عن هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾[الأعراف].

وقال ﷻ عن صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾[الأعراف].

وقال ﷻ عن شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ [الأعراف: ٩٣].

وقال ﷻ: ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾[النَّحل].

وإذا كانت هذه الوظيفة -في الأصل- هي وظيفة الرُّسُل، فإنها كذلك وظيفة أتباعهم بعدهم، وبخاصَّة أمَّة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين لم يبق دين

حقٌّ في الأرض غير دينهم ، قال ﷻ : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وإذا ما حصل تقصير أو توانٍ في هذه الوظيفة ممن كلَّفهم الله القيام بها -وحاشا رسل الله أن يقصِّروا ويتوانوا في ذلك- فإن ذلك إخلال بالوظيفة.

كما قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة: ٦٧] .

الغاية الثَّانية: إقامة الحُجَّة على الخَلْق.

حتى لا يكون لهم عذر يحتجُّون به على ربِّهم، وهذه الغاية ملازمة لما قبلها، لأن في تبليغ الرِّسالات إقامة للحجَّة، ولكنَّ كُلًّا منهما هو غاية من غايات أهل الحقِّ في السِّباق إلى العقول.

قال ﷻ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ [النِّساء] .

الغاية الثَّالثة: إخراج النَّاس من الظُّلمات إلى النُّور.

إن أهل الباطل عندهم بصر ماديٌّ ينظرون به فيرون ما تمكن رؤيته من الكون العلويِّ والسُّفليِّ، بل وصلوا إلى رؤية ما لم يكن في الحسبان رؤيته من دقائق الأمور، وما بَعُدَ في هذا الكون، عن طريق ما صنعوا من آلات مكبِّرة ومقرِّبة، وعن طريق الصَّواريخ والأقمار الصِّناعيَّة التي غزوا بها - كما يقولون – الفضاء ، ولا زالوا يطوِّرونها.

وأما الأرض وبعض طبقاتها فقد مسحوا كثيرًا منها، ولا زالوا يمسحون، ويطَّلِعون فيها على أسرار خطيرة -غير الأسرار الطَّبيعيَّة- [ومنها الأسرار العسكريَّة] لا يعرفها كثير من مسئولي البلدان التي هم فيها.

ومع هذا كلِّه فإن أهل الباطل عُمْيٌ يتخبَّطون في دياجير ظلمات الكفر

والجهل، وإن سُمُّوا علماء، وأصبح هذا المصطلح "علماء" يغلب عليهم عند عامَّة المثقَّفين في الأرض.

وهم علماء فعلًا في تخصُّصاتهم التي مكَّنتهم من علم بعض ظواهر الحياة الدُّنيا، كما قال ﷻ نافيًا عنهم حقيقة العلم الذي ينفعهم وينفع أممهم في الحياة الدُّنيا والآخرة، ومثبتًا لهم ما حازوه من علم بعض من ظاهر الحياة الدُّنيا: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الرُّوم].

فأهل الباطل هؤلاء- وغيرهم- يعيشون في ظلمات -وإن ملأ الغرور أدمغتهم والكبرُ قلوبَهم بما وصلوا إليه من العلم الماديِّ- وهم في حاجة إلى من ينبِّههم من غفلتهم، ويخرجهم من ظلمات الكفر والجهل بالخالق، إلى نور الإيمان بالله وبشرعه ووحيه ورسله، وبمنهج الحياة الذي يسعدهم في دنياهم وأخراهم، إذا ما طبَّقوه في حياتهم.

والله ﷻ يخرج النَّاس من الظُّلمات إلى النُّور بوحيه، عن طريق رسله وأتباعهم الذين يبيِّنون للنَّاس الحقَّ والباطل، ويدعونهم إلى الحقِّ، وينهونهم عن الباطل، كما قال ﷻ: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [إبراهيم].

وقال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾ [إبراهيم].

وتخصيص المؤمنين بالإخراج من الظُّلمات إلى النُّور مبنيٌّ على كونهم هم المنتفعين الذين يستجيبون لأمر الله ودعوة رسله، فيخرجون فعلًا من الظُّلمات إلى النُّور، كتخصيص كون القرآن هدى للمتَّقين في مثل قوله ﷻ في كتابه العزيز: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [البقرة].

مع أن كتاب الله ﷻ هدًى لجميع النَّاس لو أرادوا الهداية، ولكنَّه خصَّ

المتَّقين لكونهم المنتفعين به، والرِّسالات جاءت لإخراج النَّاس كلِّهم من الظُّلمات إلى النُّور.

وقد يقول قائل مبهور بالاكتشافات العلميَّة المعاصرة: كيف يكون النَّاس في ظلمات، وبخاصَّة أهل الغرب الذين ذلَّلوا بعلمهم واكتشافاتهم الصِّعاب فحوَّلوا الظَّلام الدَّامس إلى أنوار تتلألأ في المدن والقرى والأرياف، وقرَّبوا البعيد في الأسفار ، وسهَّلوا التَّخاطب بالأصوات والرَّسائل المكتوبة (بالفاكس والتِّلكس والتِّليفون وغير ذلك..)، والصُّورة عن طريق التِّلفاز والأقمار الصناعيَّة، وحوَّلوا وجه الأرض إلى مطار يهبطون فيه ويصعدون، وأصبحت الكواكب البعيدة هدفًا لاستكشافاتهم تتوالى صورها المنقولة بوساطة الآلات الفضائيَّة التي تسير من الأرض، بحيث تُؤمَر وتُنهَى -على بعد المسافة بينها وبين من يأمرها وينهاها- فتستجيب للأمر والنَّهي، وامتلأت الأرض بآثار حضارتهم، من طائرات وسيارات وقطارات وسفن بحريَّة، وغير ذلك من التقدُّم العلميِّ المشاهد في واقعنا اليوم.

أهذا الإنسان العصريُّ الذي وصل إلى هذه الدَّرجة من العلم، هو في ظلمات يحتاج إلى أن يخرج منها إلى نور؟!

وما الظُّلمات التي هو فيها الآن، وهو بهذه الحال ؟

وما النُّور الذي سيخرج إليه ؟

أهو الرُّجوع إلى سراج الزَّيت ؟ والسَّفر على البغال والحمير والجمال ؟ والسُّكنى في الكهوف، وبيوت القشِّ وجلود الأنعام والخيام؟ وبصفة عامَّة إحياء الرجعيَّة والتَّأخر والجمود وكبت الحريَّات ونسف الديمقراطيَّات التي نَعِم بها الغرب بعد جهد ونضال مريرَيْن، وإعادة المرأة إلى مخدعها لا ترى أحدًا ولا يراها أحد؟!

والإجابة عن هذا السُّؤال تطول، ولكن تعال معي أيها القارئ! لنتأمل قليلًا في أحوال النَّاس في هذا العصر الذي وصف السُّؤال قدَرا ضئيلًا من تقدُّمه الماديِّ، لنرى إن كان أولئك النَّاس الذين هذه صفتهم في ظلمات

محتاجين إلى من يخرجهم منها إلى نور أو لا ؟!

*** أمثلة لحياة القوم – المتحضِّرين – في بعض المجالات:**

المجال الأول: الحياة الإيمانيَّة:

إن المتأمِّل في الحياة الإيمانيَّة لأولئك المتحضِّرين يجدهم يؤمنون بكل شيء ماديٍّ يدخل في نطاق علمهم الدنيويِّ الظَّاهر، وكثير منهم لا يؤمنون الإيمان الحقّ ، وهو الإيمان بالغَيْبِ ، ومنه الإيمان بالخالق الإله المعبود.

فالذين يُسمَّوْن بأهل الكتاب، من يدَّعي منهم أنه يؤمن بالله ﷻ لا يؤمن به في الحقيقة، وإنما يؤمن بآلهة متعدِّدة: (الله– الابن– روح القدس) ، ويسمُّون الثَّلاثة إلهًا واحدًا، مما جعل بعض الأطفال في مدارس الغرب يتساءلون: كيف يكون الثَّلاثة واحدًا، ونحن ندرس في الرِّياضيَّات أن ضرب الثَّلاثة في واحد يساوي ثلاثة؟! فلا يجدون جوابًا، فينصرفون عن الدِّين إلى الإلحاد، ولهذا تجد دولًا كبيرة قامت في الأرض على الإلحاد الصَّريح الذي ينكر وجود الخالق – أصلًا – مع أن كلَّ ذرَّة في الكون تصرخ في وجوههم، وتحتجُّ وتثبت أن الله الخالق موجود، بل وتدلُّ على أنه المعبود الحقّ ﷻ.

وإن العقل الذي لا يقرُّ صاحبه بذلك إنما يشهد عليه بأنه أحطُّ من أحقر الحيوانات.

وتجد وثنيِّين قد ملأوا جوانب كثيرة من الأرض يقدِّسون كل مخلوق ويعبدونه من دون الله، كالبقر والنَّار والشَّجر والحيوان والنَّهر، بل حتى الفَرْج، وتجد كبار فلاسفتهم يعيشون مع الكلاب والقطط والدَّجاج في الغابات يعبدون غير الله، ويُعبَدون هم من دون الله.

فالذي لا يؤمن بالله ولا بالغَيْبِ ولا بالرُّسُل ولا ببرزخ ولا بعث ولا حشر ولا حساب ولا صراط ولا ميزان ولا جنَّة ولا نار ولا ملائكة، لا شيء يؤمن به غير عالم الشُّهود... أتراه يعيش في نور أو ظلمات؟!

إن فقد الإيمان بالغَيْبِ يكفي وحده للدَّلالة على أن صاحبه في ظلمات،

وكل خير مفقود هو أثر لفقد هذا المجال.

المجال الثَّاني: الحياة الاجتماعيَّة.

الحياة الأسريَّة هي نواة الحياة الاجتماعيَّة في كل الأمم، فإذا ما قامت الحياة الأسريَّة على أساس متين في علاقات بعض أفرادها ببعض، ابتداء من الزَّوجيْن الذين يكون الزَّواج سكنًا لهما وراحة وطمأنينة، بحيث يختار كل منهما صاحبه على أساس الدِّين الذي لا تستقيم الحياة الزَّوجيَّة إلا به، وقد يكون في بعض الأديان الباطلة شيء من الوصايا والآداب الزَّوجيَّة، ولكنَّها لا تقوم على تقوى الله ﷻ والخوف منه والرَّغبة في ثوابه، ولا تكون بذلك مطبَّقة في الواقع، وبخاصَّة عندما يكون الهدف من الزَّواج لكل من الزَّوجين المتعة الماديَّة فحسب أو الكسب المادي، كطمع كل منهما في مال الآخر ونحو ذلك، أي عندما تطغى الأنانيَّة والأثَرة.

وهذا هو الحاصل اليوم في خضمِّ الحضارة الماديَّة.

ولذلك تجد الصِّراع والشِّقاق بين الأزواج وكثرة الطَّلاق وتشرُّد الأولاد، وانتشار الأمراض النَّفسيَّة، وتعاطي الكحول والمخدِّرات والإدمان عليها، وفقد كل من الزَّوجين ثقته في الآخر، وانبنى على ذلك ما لا يحصى من الآثار الخطيرة.

من ذلك العزوف عن الزَّواج للتخلُّص من الارتباطات القانونيَّة وتحمُّل مشقات تربية الأولاد ماديًّا ، وأصبح الآدميُّون يعيشون كما تعيش البهائم.

بل إن الزَّوج يرى امرأته وهي ترافق غيره، والمرأة ترى زوجها وهو يرافق غيرها، وقد يتآمر أحد الزَّوجين وعشيقه على الآخر، فيقتلانه ليتخلَّصا منه ويعيشا عيشة الحيوان برهة من الزمن، ثم يستبدل كل منهما بقرينه قرينًا آخر. وليصادف في حياته ما يصادف، وإذا كان الولد يكره الحياة مع والديه أو أحدهما غادر المنزل وقد لا يلتقيهم بعد ذلك في هذه الحياة، وقد يقتل أحدهما الآخر، وكم من شيخٍ فانٍ مات في منزله فلم يعلم بموته أولاده، وهم في مدينته أو حارته أو عمارته أو في مكان آخر؟! فلا يُعرف موتُه إلا برائحة

جثَّته عندما تتخلَّل شقوق الأبواب والنَّوافذ فتنبِّه الجيران ليستدعوا الشُّرطة لتريحهم من تلك الرَّائحة.

ولعدم ثقة كلٍّ من الزَّوجين في صاحبه، وعدم ثقة الآباء في نسبة الأولاد إليهم، ترى الغنيَّ الثريَّ يوقف ماله بعد موته على حيوانات أو غيرها، فرارًا من أن يحوزها مَن لا يثق بنسبته إليه.

هذه بعض أحوال الأسرة التي هي نواة المجتمع، فكيف يا ترى يكون المجتمع المكوَّن من هذه الأسر ؟

كيف تكون الرَّوابط بين أسرة الزَّوج وأسرة الزَّوجة ؟ وكيف تكون الرَّوابط بين الجيران ؟ وكيف تكون الرَّوابط بين الإخوان والأعمام والعمَّات، والأخوال والخالات، والأقارب الآخرين، إذا كانت تلك هي الرَّوابط بين الأزواج والأبناء ؟ هذا في الأقارب فما شأن الأباعد ؟!

إنه الدَّمار الذي يحطِّم الرَّوابط الماديَّة التي لا أساس لها من دين أو خلق، فلا يرحم قويٌّ ضعيفًا ولا يحترم صغير كبيرًا.

فهل ترى أمثال هؤلاء الذين هذه حياتهم في المجال الاجتماعيِّ يعيشون في نور أو في ظلمات؟!

المجال الثَّالث: الحياة الاقتصاديَّة.

والاقتصاد عند المتحضِّرين هو محور التَّنافس وميدان الصِّراع، يحطم القويُّ فيه الضَّعيف، وتقف وراءه حفنة قليلة من البشر تمتصُّ به عَرَق العالم ودماءه، عصابة يقبع أفرادها في مكاتبهم ويقعدون على كراسيهم، ويديرون الاقتصاد العالمي كلّه بمكالمات هاتفيَّة أو رسائل تلكس أو فاكس، أو بريد إلكتروني، يتلاعبون بأسعار النَّقد والسِّلع، ويحطِّمون اقتصاد دول وشعوب، وتبتلع شركاتٌ كبرى شركاتٍ صغرى، سلاحُهم الأساسيُّ في كل ذلك الرِّبا الذي دمَّر العالم وحطَّمه.

ينبني على هذا الجشع والاستغلال والتَّلاعب، أن يكدح البشر في العالم

ويبذل غاية طاقته في العمل من أجل أن تقطف ثمار عمله تلك العصابة المرابية، فتكون الدُّول والشُّعوب أسيرة لتلك العصابة، تأخذ منها أقصى جهدها، وتعطيها ما لا يقيم ضرورتها من المعيشة.

وبتمكُّن تلك العصابة الشِّريرة من السيطرة الاقتصاديَّة واحتوائها للمال ومرافقه، أصبحت تسيطر على مرافق العالم من الإعلام بكلِّ وسائله من الصَّحيفة إلى القمر الصِّناعيِّ وما يتَّصل به ، تخدمها الوكالات الإعلاميَّة الكبرى التي تنشئها أو تشتريها بالمال والجاه والمنصب وإشباع الغرائز.

وبذلك تحتكر المعلومات وتسرِّب منها ما تريد وتحتفظ بما تريد، وتأتي التَّحليلات والتَّحقيقات متمشِّية مع مقاصدها، و كثيرًا ما تُقلب فيها الحقائق وتُضلَّل بذلك الأمم والشُّعوب ، وتخدمها أجهزة الإعلام في الدُّول المستضعفة، لأنها تتلَّقى مادتها الإعلاميَّة من وكالاتها، فتنتشر بين النَّاس معلومات مضلِّلة في كل المجالات، ولا يتنبه لذلك إلا قلَّة من النَّاس لا حيلة عندهم في كشف ذلك وفضحه، بدون وسيلة إعلاميَّة أمام تيار الوكالات المسيّرة بذلك الاقتصاد، وسيأتي الكلام على مجالات أخرى للاقتصاد ودوره الفعَّال في التَّأثير عليها.

ومع الثَّراء الفاحش الذي تجمَّع في أيدي تلك العصابة، تجد الفقر المدقِع قد أنهك مجموعات من البشر في جميع الدُّول بما فيها الدُّول المتحضِّرة (ماديًّا) يفترشون الأرض ويلتحفون السَّماء، يتسكَّعون في الشَّوارع، لا يجدون من يشفق عليهم أو يرحمهم من أولئك الأثرياء، لا بصدقة ولا بوظيفة ولا بقرض حسن، فكثرت بسبب ذلك البطالة، لقيام أولئك الأثرياء بتسريح أعداد هائلة من العمَّال، وبخاصَّة بعد أن حلَّت الآلة محلَّ البشر، والذي يبقى في عمله من الضُّعفاء، لا ينال من أجره إلا ما يجود عليه به الثَّريُّ الذي يستغل أقصى جهده في العمل، ولا يعطيه من الأجر إلا أقلَّ القليل مما يستحقّ.

وهنا يأتي دور نقابات العمَّال التي تقوم بالمظاهرات وتلجأ إلى الاعتصامات فتتوقَّف الأعمال في بعض المؤسَّسات ، حتى يتمَّ التَّفاهم مع ربِّ العمل

والعمال، فيعود العمل لفترة زمنيَّة، و يتكرَّر النِّزاع بعدها من جديد.

وحدِّثْ عن الجوع الذي يقتل شعوبًا بأكملها، والكوارث التي تقضي على بلدان كثيرة، فلا تجد من عصابات الثَّراء عونًا ولا إسعافًا ، وبخاصَّة إذا كانت تلك الشُّعوب غير مرضيٍّ عنها لأمر من الأمور.

واليوم ظهر خوف الشُّعوب ذات الحضارة الماديَّة المتقدِّمة -فكيف بغيرها- مما سمِّي بالعولمة، التي حقيقتها سيطرة الأقوياء على الضُّعفاء في كل المجالات: الاقتصاديَّة ، والسياسيَّة ، والاجتماعيَّة ، والثقافيَّة ، والعسكريَّة ، والإعلاميَّة ، وجعل الشُّعوب الضَّعيفة أشدَّ ضعفًا، تقضي فيها الدُّول القويَّة على كل مقوِّماتها، بل تقضي على سيادتها، وتصبح الدُّول القويَّة تتحكَّم في كل شأن من شؤون حياتها.

فهل ترى أمثال هؤلاء الذين هذه حياتهم في المجال الاقتصاديِّ يعيشون في نور أو في ظلمات؟!

المجال الرَّابع: الحياة السياسيَّة.

الحياة السياسيَّة في العالم الذي يقال عنه: إنه متحضِّر تقوم كغيرها على أساس إبعاد منهج الله ﷻ عن تسيير حياة البشر، وإحلال المناهج البشريَّة محلَّه، وهو ما اشتهر بالعلمانيَّة، والعالم الغربيُّ منطقيٌّ مع نفسه في ذلك، بالنِّسبة للدِّيانة النصرانيَّة المحرَّفة.

فالإنجيل الذي بأيديهم ليس فيه ما يمكن أن يستند عليه في التَّشريع والسياسة والاقتصاد والاجتماع والقضاء وغيرها، حتى يقال للنَّصارى: احكموا بالإنجيل في سياستكم .

وأهل الغرب ليس عندهم- وخاصَّة ساستهم- استعداد لقبول تحكيم الإسلام حتى يبنوا حياتهم السياسيَّة على مبادئه- لاسيما أن المسلمين أنفسهم لا يحكِّمون الإسلام في أغلب بلدانهم، فكيف يُرجى من غيرهم أن يحكم به وهم بعيدون منه؟!.

لذلك قامت الحياة السِّياسيَّة في الغرب على مبدأ الديمقراطيَّة التي يقال عنها: إن الشَّعب يحكم نفسه بنفسه إما بصفة مباشرة -وهذا حلم لم يتحقَّق إلى الآن- أو عن طريق نوَّابه الذين يختارهم.

والأسلوب الذي تُدار به السِّياسة في الغرب أسلوب جذَّاب في ظاهره وبخاصَّة إذا قورن بالسِّياسة الاستبداديَّة " الدكتاتوريَّة " التي اتَّبعها المعسكر الاشتراكيُّ والدُّول المسمَّاة بالعالم الثَّالث. فإن الشَّعب في الغرب يختار نوَّابه ويختار قادته بدون شراء الأصوات مباشرة، وبدون تزوير واضح، وبدون مضايقة شرطيَّة "بوليسيَّة" يتنافس الزُّعماء الذين يرشِّحون أنفسهم لقيادة بلدانهم، فإذا اختير أحدهم قام الحاكم السَّابق بتسليم الحكم إليه، بدون أي عناء أو مشقَّة ، وهكذا تتداول الأحزاب الحكم بطريقة سلميَّة بخلاف الزُّعماء الاستبداديِّين وأحزابهم ، فإنهم لا يسلِّمون الحكم لخصومهم إلا بالسِّلاح.

ولكن هل هذه الصُّورة الظَّاهرة المفضَّلة على الاستبداد كما يراها النَّاس في ظاهرها حرَّة ليس فيها إكراه، ونزيهة ليس فيها خداع؟؟

والجواب: لا، فحريَّتها ظاهريَّة سطحيَّة، ونزاهتها وهميَّة ، فالأحزاب الغربيَّة المسمَّاة بالديمقراطيَّة تضلِّل عقول الشُّعوب التي تنتخب الزُّعماء، عن طريق أجهزة الإعلام بتخطيط وتنظيم وتنفيذ معدَّة إعدادًا محكمًا، من قبل مختصِّين في كل شأن من الشُّؤون التي تهمُّ تلك الشُّعوب، وأجهزة الإعلام هي التي تُشترَى بدلا من شراء الأصوات مباشرة، وهي تكذب وتجعل الكذب في صورة صدق، والزُّعماء يكذبون ويظهر كذبهم في صورة صدق، إضافة إلى القذارة الأخلاقيَّة التي يتَّبعونها في اتِّهاماتهم لخصومهم بالحقِّ والباطل، مع ما يعِدُ به الزَّعيم الشُّعوب من الإنجازات التي يتبخَّر كثير منها بعد وصوله إلى كرسيِّ الحكم.

فهل ترى أمثال هؤلاء الذين هذه هي حياتهم في المجال السِّياسيِّ يعيشون في نور أو في ظلام؟!

وهذا مع اعترافنا أن أساليب سياسة الدُّول الغربيَّة الديمقراطيَّة، أفضل

بكثير من أساليب الحكم المستبدَّة في الدُّول المسمَّاة بدول العالم الثَّالث.

المجال الخامس: حياة تطبيق حقوق الإنسان.

عندما يتابع المرء ما يصدر عن زعماء ومفكِّري الغرب، عما يتعلَّق بحقوق الإنسان ينقدح في ذهنه -إذا كان خالي الذِّهن- ثلاثة أمور رئيسة:

الأمر الأول: أن حقوق الإنسان هذه مصدرها الغرب، فهو الذي ابتكرها، وهو الذي صاغها ووضعها، وهو حامل لوائها وناشرها والدَّاعي إليها.

الأمر الثَّاني: أن المقصود بالإنسان جنسه، بصرف النَّظر عن لونه أو دينه أو نوعه أو أرضه.

فكل إنسان في الأرض يجب أن يتمتَّع بهذه الحقوق المنصوص عليها "بصرف النَّظر عن موافقة بعضها للإسلام أو مخالفته.." فهذا أمر آخر له موضوعه.

الأمر الثَّالث: أن حقوق الإنسان التي يدعون إلى تطبيقها، بلغت من الكمال والسموِّ والدَّوام ما يجعلها جديرة وحدها بالاتِّباع، وكل ما عداها من التَّشريعات لا تدانيها!.

إن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان أقرَّته الأمم المتَّحدة، بعد انتهاء الحرب العالميَّة الثَّانية التي دمَّرت العالم في مشارق الأرض ومغاربها، بسبب الأطماع الاستعماريَّة الغربيَّة "المتحضِّرة" !.

وهذا الإعلان يؤكِّد على احترام حريات الشُّعوب والجماعات والأفراد دون تمييز (بسبب العنصر أو اللَّون أو الجنس أو اللُّغة أو الدِّين أو الرأي السِّياسيِّ أو الغِنى أو أي شيء آخر، دون أي تفرقة بين الرِّجال والنِّساء..).

وكان صدور هذا الإعلان سنة ١٩٤٨م، وقد مضى على نزول القرآن الكريم أكثر من خمسة عشر قرنًا. والقرآن والسنَّة والفقه الإسلاميّ المستنبط منهما قد تضمَّنوا جميعًا من حقوق الإنسان ما لم يخطر ببال أحد من النَّاس، ليس في الكليَّات فقط، وإنما في أدقِّ الجزئيَّات، ابتداء من وجود الجنين في بطن أمِّه إلى أن يوافيه الأجل، وكذلك حقوق الفرد والأسرة والشَّعب

والدُّولة، وليس المقام مقام استعراض لذلك، لا لكلِّياته ولا لجزئيَّاته، وقد كتب الكثير فى ذلك[1].

يضاف إلى ذلك أن حقوق الإنسان المفصَّلة الربانيَّة التي لا يعتريها النَّقص قد طبِّقت فترة طويلة من الزَّمن، فأسعدت العالم الذي استظلَّ بظلِّها: مسلَمه وكافرَه، ولا تزال تنتظر من يطبِّقها بصدق لتنعم الأمم بها كذلك.

ولكن ما مدى تطبيق الدُّول المتحضِّرة لحقوق الإنسان التي أقرَّتها وتعاقدت عليها؟

إن نظرة خاطفة إلى تصرُّفات الدُّول المتحضِّرة! في هذا المجال تظهر للنَّاظر الأمور الآتية:

الأمر الأول: أن الجنس الأبيض الغربيَّ، لا يرى أيَّ جنس آخر يقترب من مرتبته، وأنه هو وحده الذي يجب أن يسود، فصاحب اللَّون الأسود مكث فترة من الزَّمن بعد إعلان حقوق الإنسان، لا يحقُّ له أن يختلط بالبيض في المدارس والجامعات والفنادق والمطاعم، ولم يَخِفَّ هذا التَّمييز إلا بعد كفاح مرير من السُّود في أمريكا.

وفي الدُّول الأوربيَّة "المتحضِّرة!" تفرقة واضحة بين الإنسان المسلم والإنسان اليهوديِّ، فالمجموعة الصغيرة من اليهود معترف بدينها في البلدان وتنال كامل الحقوق التي ينالها أهل البلد نفسه، والعدد الهائل من المسلمين لا تعترف أكثر تلك الدُّول بدينهم الإسلاميِّ؛ ولذلك حرِم المسلمون من الحقوق التي حصلت عليها الطَّوائف اليهوديَّة!

بل إن الهجمة الشَّرِسة على المسلمين الآن في بعض الدُّول الأوربيَّة تنذر بالخطر، فالقتل والاغتيال اللَّذان يتعرَّض لهما المسلمون في بعض الدُّول الأوربيَّة -كفرنسا وألمانيا- وكذلك الاعتداء على بعض المراكز الإسلاميَّة والمساجد، على مرأى ومسمع من الحكومات الأوربيَّة، يدلُّ على أن حقوق

---

(١) انظر ـ تكرُّمًا ـ حريَّة رأي أم إساءة للإسلام ، للمؤلِّف، ط القاهرة.

الإنسان المسلم في أوربا غير مرغوب في حمايتها ، والحملات العنصريَّة تتصاعد ضدَّ المسلمين كل يوم.

*** دعاة حقوق الإنسان يُكرِهون الإنسان على التَّخلِّي عن عقيدته!**

من حقوق الإنسان لدى الدُّول الغربيَّة - وبخاصَّة أمريكا التي تزعم أنها حاملة لواء هذه الحقوق وحاميتها- عدم إكراه الإنسان على عقيدة معيَّنة. فهل وفَّى حماة حقوق الإنسان بهذا الحقّ؟!

هذه أمريكا اليوم تسعى -وهي زعيمة الغرب- لإكراه أيِّ دولة أو أيِّ جماعة أو أيِّ حزب في أيِّ مكان في العالم، لإقامة منهاجها ونظامها ونشاطها على أساس علمانيٍّ -بمعنى وجوب إبعاد أيِّ تشريع مبنيٍّ على أساس دينيٍّ عن حياة الشُّعوب- ومعلوم أن حياة المسلمين كلها يجب أن تبنى على أساس دينهم الذي نزل به كتابهم وجاءت به سنَّة نبيِّهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والمسلمون يعتقدون جازمين أن الله ﷻ قد فرض عليهم تطبيق أحكام القرآن والسنَّة في حياتهم، وأنهم إن جحدوا هذا الفرض فقد خرجوا من ملَّة الإسلام، وأصبحوا أشدَّ بُعْدًا عن الله ﷻ من جميع كفَّار الأرض، وإن خالفوا ذلك مع اعتقادهم بأنهم عاصون لربِّهم، فقد ارتكبوا كبائر الذُّنوب، ومع ذلك أصبح تطبيق الشَّريعة الإسلاميَّة لدى أمريكا وأنصارها جريمة وتطرُّفًا وإرهابًا، وانتهاكًا لحقوق الإنسان.

ومعنى هذا أن أمريكا وحزبها يفرضون على المسلمين فرضًا ويكرهونهم إكراهًا أن يعتقدوا أن حقوق الإنسان -المبنيَّة على الكفر بشريعة الله ﷻ وكتابه وسنَّة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هي الحقّ الذي يجب الإيمان به وتطبيقه، وأن يعتقدوا أن شريعة الله ﷻ باطلة لا يجوز أن تكون أساسًا لأنظمتهم وحكمهم.

فأين تطبيقهم لمادَّة حقوق الإنسان التي تنصُّ على حريَّة الاعتقاد؟ لماذا لا يتركون المسلمين -وهم أهل الدِّين الحقّ الذي لم يبق دين في الأرض محتفظًا بمرجعه الإلهيِّ الصَّادق غيره- أحرارًا في اعتقادهم وإيمانهم وتطبيق أحكام

قرآنهم وسنَّتهم وشريعتهم ونظامهم الذي يختارونه؟ أليس هذا إكراهًا لدول وشعوب؟!! أليس إكراه الدُّول والشُّعوب أشدَّ من إكراه الأفراد؟!!

*** دعاة حقوق الإنسان يحرمون الإنسان من حقِّه في المساواة.**

ولننظر إلى التفرقة العنصريَّة في جنوب أفريقيا التي استمرَّت عشرات السِّنين، والأوربيُّون يعذِّبون ويشرِّدون ويدوسون كرامة السُّود وهم أهل البلد، ودعاة التحضُّر وحماة حقوق الإنسان ينكرون ذلك في أجهزة الإعلام، ويمدُّون أبناء جنسهم الأوربيِّين بكل ما يريدون من مال وسلاح وغيرهما، بطرق خبيثة ماكرة.

والتَّفرقة العنصريَّة اليهوديَّة في فلسطين لا زالت جاثمة على صدور أهل البلد من الفلسطينيِّين الذين تُداس كرامتهم في منازلهم وشوارعهم ومساجدهم ومخيَّماتهم بكل وحشيَّة ، والدُّول الغربيَّة المتحضِّرة تمدُّ اليهود بالسِّلاح والمال والاقتصاد والدَّعم الكامل، سياسيًّا وعسكريًّا إذا اقتضى الأمر ذلك، أي إن حقوق الإنسان الفلسطينيَّ مهدرة كحقوق الإنسان الأفريقيِّ.

وتلك الهند تحتلُّ أرض المسلمين في كشمير برغم قرارات "مجلس الأمن" التي أعطت الحقَّ للكشميريِّين في تقرير مصيرهم باستفتاء يجري بينهم، تقتلهم الهند وتسجنهم وتشرِّدهم، والدُّول الغربيَّة المتحضِّرة الحامية لحقوق الإنسان تسمع وترى وتهزُّ كتفيها غير عابئة بما يجري.

والمسلمون في بورما يُقتَلون ويشرَّدون ويعذَّبون ويموتون جوعًا، ودول الغرب المتحضِّرة حامية حقوق الإنسان تتفرَّج وكأن الأمر لا يعنيها.

والأغلبيَّة المسلمة في الحبشة وإريتريا تحكمها أقليَّة تتصرَّف في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، والدُّول المتحضِّرة حامية حقوق الإنسان تتفرَّج ولا تحرِّك ساكنًا!!

والأغلبيَّة المسلمة في جنوب الفلبين تطالب بحقوقها، والدُّولة الصليبيَّة تدوس كرامتها، وتقتل وتشرِّد المسلمين، أمام أعين حماة حقوق الإنسان فلا

تتحرَّك ضمائرهم!!

والأغلبيَّة المسلمة في جنوب تايلاند تُضطهد وتُحرَم من حقوقها، أمام أعين حماة حقوق الإنسان!

والأغلبيَّة المسلمة في البوسنة والهرسك تُستأصَل في بلدها، من قبل الصَّليبيِّين الصِّرب والدُّول الغربيَّة تنذر وتتوعَّد ولا تحرِّك ساكنًا.

والمسلمون في ليبريا يُذبحون وتُقطع ألسنة أئمَّتهم وتُهدَم مساجدهم، وتُنتهك أعراضهم، وحماة حقوق الإنسان يشاهدون دون أن يفعلوا شيئًا!

لماذا كلُّ هذا السُّكوت ولماذا يغضُّ حماة حقوق الإنسان الطَّرْف عن هذه المآسي، ولماذا لا يتدخل مجلس الأمن الظالم لنصرة حقوق الإنسان المسلم؟

لا سبب أمامنا نراه إلا سببًا واحدًا، وهو أن هذا الإنسان مسلم، لا قيمة له ، لأن المسلمين أذلُّوا أنفسهم لغير الله فزادهم الله ذلًّا جزاءً وفاقًا.

لكنَّ حماة حقوق الإنسان لا ينامون ولا يهدؤون إذا ما انتهكت حقوق إنسان آخر غير مسلم، أو انتهكت حقوق مسلم ولهم في التَّدخل لحماية حقوقه -في الظاهر- مصلحة، فمصلحة حماة حقوق الإنسان هي المحور الأساس.

وإليك بعض الأمثلة:

- عندما أعلنت كرواتيا وقت اشتداد الاعتداء على المسلمين في البوسنة والهرسك استقلالها عن صربيا، وأعلن الصِّرب الحرب ضدَّها قامت دول التحضُّر الحامية لحقوق الإنسان بحملة سريعة ضد صربيا، وأعلن مجلس الأمن إرسال قوَّة تفصل بين الدُّولتين وتمَّ ذلك، ولكنها لم تفعل ذلك مع البوسنة والهرسك ، وكلاهما دولتان اعترف بهما ، وهما من دول يوغوسلافيا السَّابقة ويجاور بعضهما بعضًا، فلماذا!؟

- أعلنت دول الغرب المتحضِّر الحامي لحقوق الإنسان حربًا إعلاميَّة ضدَّ حكومة السُّودان، بسبب قتلها موظفَيْنِ سودانيَّين لدى الإدارة الأمريكيَّة، لأنهما نصرانيَّان والغالب أنهما جاسوسان لأمريكا، لأن الحكومة السُّودانيَّة سوَّغت قتلهما بالخيانة العُظمى.

أعلنوا حمايتهم لحقوق الإنسان الشِّيعيِّ -الذي يظهرون كراهته- في جنوب العراق من أجل أغراض خاصَّة لهم في العراق، حتى سيطرت الشِّيعة -اليوم- على حكم العراق!!

*** دعاة الديمقراطيَّة يحرمون الإنسان من الديمقراطيَّة!**

إن الديمقراطيَّة أحد المحاور الرئيسة التي يُدَندِن حولها الغرب المتحضِّر، ويلحُّ على دول ما يسمَّى بالعالم الثَّالث على أن تطبَّق المنهج الديمقراطيَّ الذي أساسه إعطاء الشُّعوب حريَّة اختيار حكامها.

ويحترم الغرب المتحضِّر فوز أي حزب في الانتخابات - حتى ولو كانت مزوَّرة مع انتقاده للتَّزوير- ولكن الغرب المتحضِّر يحظر حظرًا باتًّا، بأساليبه الخاصَّة وصلاته بحكَّام الشُّعوب الإسلاميَّة النَّابذين لشرع الله ﷻ، قيامَ أي حزب على أساس الإسلام، وإذا ما سبق السَّيف العَذْل فقامت جماعة إسلاميَّة واختارها الشَّعب، حاربوا تلك الديمقراطيَّة التي أهَّلت الجماعة المسلمة إلى أن تكون هي الحاكمة، وفسَّروا الديمقراطيَّة التي ينادون بها بأنها ليست الديمقراطيَّة التي تكون وسيلة لوصول الأصوليِّين إلى الحكم، لأن وصول الأصوليِّين إلى الحكم يعود بالنَّقض على الديمقراطيَّة، وأوعزوا إلى أذنابهم بحماية الديمقراطيَّة الأصيلة، بالجيش وأجهزة الأمن وفتح المعتقلات والسُّجون لمن اختارهم الشَّعب ، ولا يخفى ما قام به تلاميذ أتاتورك العسكريُّون والمدنيّون الأتراك بضغط حُماة الدِّيمقراطيَّة وحقوق الإنسان من محاربة حزب الرَّفاه الإسلاميِّ الذي وصل إلى الحكم عن طريق الانتخابات الديمقراطيَّة، وما حدث مع جبهة الإنقاذ في الجزائر.

لقد اتَّخذ الغرب المتحضِّر لافتة حقوق الإنسان والديمقراطيَّة والحريَّة وغيرها سلاحًا لحماية حقوق الإنسان الغربيِّ أو من له مصلحة في حمايته.

بل صرَّح بعض القادة بأن مصالحهم هي التي تحدِّد مواقفهم، فبمقدار المصلحة يكون الموقف.

قال الرئيس الأسبق للولايات المتَّحدة الأمريكيَّة ريتشارد نكسون: "وأول واجب علينا أن نفعله هو أن نفرِّق بين مصالحنا الحيويَّة، ومصالحنا الحسَّاسة، ومصالحنا الهامشيَّة، ولا توجد دولة في العالم تستطيع أن تدافع عن جميع هذه المصالح طوال الوقت...

وتكون المصلحة حيويَّة إذا كان فقدانها يهدِّد أمن الولايات المتَّحدة، فاستمرار استقلال أوربا الغربيَّة واليابان وكندا والمكسيك ودول الخليج مسألة حيويَّة لأمن بلادنا.

وكذلك لدينا مصلحة حيويَّة في أن لا تحصل الدُّول المتخلِّفة على السِّلاح الذَّريِّ، وليس للولايات المتَّحدة الخيار إلا القوَّة المسلَّحة لتمنع تهديد مصالحها.

والمصلحة الحسَّاسة هي التي تشكِّل تهديدًا مباشرًا لإحدى النِّقاط الحيويَّة... ولذلك تعتبر أمريكا الوسطى وكوريا من المصالح الحسَّاسة للولايات المتَّحدة، ومن الممكن أن تلجأ الولايات المتَّحدة أحيانًا في معالجة المصالح الحسَّاسة، وكأنها مصالح حيويَّة وكنوع من الاستراتيجيَّة الدفاعيَّة.

أما المصالح الهامشيَّة فهي الأمور التي لو سيطرت عليها قوى معادية فإنها تشكل تهديدًا غير قريب لمصلحة حيويَّة أو مصلحة حسَّاسة.

وعلى سبيل المثال فإنَّنا لا نحبُّ أن تحتلَّ إحدى الدُّول المعادية دولة مالي، ولكننا لا نعتقد أن احتلال مالي سوف يكون له تأثير على مصالح الولايات المتَّحدة المهمَّة، ومن هنا فلا نفكِّر في استعمال القوَّة العسكريَّة لردِّ هذا الاعتداء.

إن استراتيجيَّتنا الأمنيَّة يجب أن تقيِّم كل ما يمكن عمله، طبقًا لمستوى الأهميَّة لمصالحنا وإمكاناتنا وما نواجه من أخطار.

فعلى سبيل المثال لا نرسل الوحدة: ٨٢ المحمولة جوًّا للدِّفاع عن إحدى مصالحنا الهامشيَّة في موريتانيا، ولكننا نفعل ذلك بدون تردُّد للدِّفاع عن مصلحتنا في الخليج.. وقد فعلوا![1].

---

(١) كتاب الفرصة السَّانحة. ترجمة أحمد صدقي. دار الهلال.

من هذا النَّص تستطيع أن تعرف السَّبب في عدم التدخُّل في البوسنة والهرسك، لأن هذا التدخُّل ليس لأمريكا فيه مصلحة لا حيويَّة ولا حسَّاسة ولا هامشيَّة، لأن المظلوم مسلم والظَّالم نصرانيٌّ. اللَّهم إلا أن يقال: إن لها مصلحة هامشيَّة، وهي أن سكوتها عن هذا الظُّلم يشوِّه سمعتها أمام العالم الذي تعلن له أنها حامية حقوق الإنسان، ولهذا تستنكر في أجهزة إعلامها هذا الظُّلم وتهدِّد كذبًا وزورًا صربيا، وتحثُّ على إغاثة المسلمين، فمصلحة الغرب هي الأساس. ثم تدخَّلت بعد ذلك بجيوشها في البوسنة والهرسك، بعد أن قتل مئات الآلاف من المسلمين وشرِّدوا من ديارهم، واغتصب الصِّرب غالبَ أراضيهم ، ولا زال الصِّرب يحظرون على المسلمين عودتهم إلى مدنهم وقراهم التي تمَّ الاتِّفاق على عودتهم إليها بموجب اتفاقيَّة "دايتون" أمام سمع وبصر أوربا وأمريكا.

فهل ترى أمثال هؤلاء المتحضِّرين الذين هذه صفتهم يعيشون في نور أو في ظلام؟!

وأكتفي بهذه المجالات الخمسة، للتَّدليل على أن العالم المتحضِّر محروم من النُّور الرَّبَّانيِّ، وتحيط به الظُّلمات الشَّيطانيَّة من كل جانب، وأنه يجب على أهل الحقِّ السَّعي الجادُّ لإخراجه من الظُّلمات إلى النُّور.

وكما أن الكفر كلَّه ظلمات، فإن الإسلام كلَّه نور، قال ﷻ: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأنعام] .

ونتابع الغايات المتفرِّعة لأهل الحقِّ :

الغاية الرَّابعة: تحقيق توحيد الله ﷻ في الأرض وعدم الإشراك به.

وإذا كان رضا الله ﷻ هو غاية الغايات، فإن توحيد الله ﷻ هو قائد جميع الغايات والوسائل إلى رضا الله، ومهما عمل الإنسان من أعمال ظاهرها الخير

والصَّلاح والنَّفع العام أو الخاصُّ للبشر، فإن ذلك كله لا يوصل إلى رضا الله بدون التَّوحيد، وهو ما تضمنته قاعدة الإسلام:"لا إله إلا الله" كلمة التَّوحيد ، وكلمة الإخلاص.

وهذه الغاية هي التي أوجد الله ﷻ من أجلها الكون الذي خلقه بالحقِّ، وهي الحقُّ، ومن أجلها خلق الملائكة والجنَّ والإنس، ومن أجلها أنزل الكتب، وأرسل الرُّسُل، وما من رسول بعثه الله ﷻ إلى الخلق، إلا كانت كلمة التَّوحيد هي أول ما يدعو إليه قومه.

قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النَّحل:٣٦] .

وبتحقيق هذه الغاية تسعد البشريَّة كلها في الدُّنيا والآخرة، ويكون النَّاس كلهم عبيدًا لله ﷻ لا يستعبد بعضهم بعضًا، فلا يكون هناك سادة يظلمون ويتكبَّرون ويستبِدُّون بالأمر كما يشاؤون، ولا عبيد يُظلَمون ويُذَلّون لمخلوقين أمثالهم، وإنما يستوي النَّاس كلهم في أنهم مخلوقون مربوبون ، عبيدٌ لله ، لا فضل لأحد منهم على أحد إلا بالتَّقوى، كما قال ﷻ: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] .

*** توحيد الله هو الحريَّة الحقّة.**

وبتوحيد الله ﷻ يتحرَّر النَّاس من عبوديَّة الشَّيطان والنَّفس والهوى، ومن كل العبوديَّات (المُذِلَّة) لغير الله ﷻ ، سواء كانت تلك العبوديَّات لمال أو جاه أو منصب أو امرأة ، أو لأشخاص- أحياءً كانوا أو أمواتًا - وتلك هي الحريَّة الحقّة التي يبحث عنها الأفراد والأسر والأمم في كل الأزمان.

وهل يكون حرًّا مَن تستعبِده شهوات نفسه فتجعله أسيرًا لها، سابحًا في مستنقع ملذَّاتها الماديَّة العاجلة، التي تحطِّم السُّدود الحامية لحفظ الدِّين

والعقل والنَّفس والنَّسل والعرض والمال؟!

هل يكون حرًّا من يفقد دينه بالإلحاد والكفر الصَّريح والردَّة عن الإسلام؟ وهل يكون حرًّا من ينسى الله عند الشَّدائد ويلجأ إلى الموتى في قبورهم يدعوهم ويستغيث بهم؟ وهل يكون حرًّا من يُذهِب عقلَه بتناول المسكرات والمخدِّرات؟ وهل يكون حرًّا من يعتدي على الأنفس والدِّماء، ولا يأمن هو مِن أن يَعتدِي على نفسه ودمه غَيْرُه دون قصاص أو رَدْع؟ وهل يكون حرًّا من ينفق ماله فيما يعود عليه وعلى أمته بالضَّرر، ومن لا يأمن من الاعتداء على ماله؟ وهل يكون حرًّا من يُهلَك نسلُه ويُعتدَى على عرضه؟ وهل يكون حرًّا من يضع له غيُره من البشر مناهجَ متناقضة لحياته، في الاعتقاد والتَّشريع والحكم والخُلق والاقتصاد والسِّياسة والإعلام والحرب والسلم ونظام الأسرة والأدب والفنِّ والرِّياضة... فيخضع لذلك كله، دون أن يكون له اختيار أو انتقاد أو تظلُّم؟؟!!

إن الحريَّة الحقيقيَّة هي أن يكون قلب الإنسان عبدًا لله وحده، لا يتلقَّى أمره ونهيه إلا من الله فيتَّجه بنشاطه وجهة واحدة، من غير تناقض ولا قلق أو اضطراب، متحرِّرًا من عبوديَّة كل من سواه، فلا يكون عبدًا للشَّيطان ولا للنَّفس ولا للهوى، ولا تتنازعه آلهة الشَّهوات المتشاكسة تنازعًا يجعله في حيرة ورَيب.

ولقد ضرب الله مثلًا لمن هو حرٌّ في الحقيقة، وذلك بعبوديته لله ﷻ وحده، ومن استعبده غيرُه من الآلهة المتعدِّدة، فقال ﷻ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزُّمر: ٢٩].

إن الآية تصوِّر لنا رجلين:

أحدهما: عبد مشترَك لمالكِين متعدِّدِين بينهم خلاف ونزاع شديد، كل شريك منهم يأمر ذلك العبد بأمر يخالف أوامر شركائه الآخرين ويصرُّ على

أن يطيعه في أمره ، وطاعته لأحدهم معصية لأمر كل واحد من شركائه الآخرين ، فلا يستطيع أن يُرضي كل واحد من هؤلاء الشِّركاء، بل سيكونون كلهم ساخطين عليه ، وسيعيش في حيرة وضنك وشقاء.

وثانيهما: عبد لرجل واحد لا يأمره ولا ينهاه إلا هو .

فأيُّ العبدين أقرب إلى الحريَّة: الأول الذي فيه شركاء متشاكون، أم الثَّاني الذي هو عبد لرجل واحد ؟!

المثل الأول لمن استعبده غيرُ الله- أيًّا كان هذا الغير- والمثل الثَّاني لمن تمحَّضت عبوديته لله وحده، ولله المثل الأعلى.

وإنك لترى الرَّجل الضَّعيف المغلوب على أمره، الذي اعْتُدِيَ على نفسه وماله وعرضه وحرم من التَّمتُّع بحقِّه في الحياة فسُجن أو أُسر، وقد تمحَّضت عبوديَّته لله وحده، ولكنه حرٌّ قلبه مطمئن باله، وهو واقف مثل الجبل الرَّاسي أمام الطُّغاة المعتدين الأقوياء، غير مبالٍ، وعنده إرادة قويَّة على تحرير جسمه من الأسر كما تحرَّر قلبه ، لأنه يأوي إلى ركن شديد.

وترى الرَّجل الغنيَّ ذا السُّلطة والجند والجبروت، قد خضعت له الرِّقاب، ودانت له الأمراء ووقف بأبوابه الحُجَّاب، فإذا سبرْتَ أمرَه واختبرت سرَّه، وجدته عبدًا ذليلًا لنفسه وشهوته وهواه، بل وجدته مستعبَدًا لبعض من هم في الظَّاهر عبيده، وهم أعوانه الذين يستند في طغيانه على عونهم، ويستنجد في ملمَّاته بهم ، فهو في ظاهره سيد ، وفي حقيقته عبد كالعبيد.

يقول ابن تيمية رحمه الله:

« ..فإنَّ أَسْرَ القلب أعظم من أَسْر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، فإن من استُعبِد بدنه واسترِقَّ لا يبالي إذا كان قلبه مستريحًا من ذلك مطمئنًا، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص، وأما إذا كان القلب -الذي هو الملك- رقيقًا مستعبَدًا لغير الله، فهذا هو الذلّ والأسر المحض.. فالحريَّة حريَّة القلب، والعبوديَّة عبوديَّة القلب...- إلى أن قال-: وكذلك طالب الرِّئاسة والعلوِّ في الأرض، قلبه رقيق لمن يعينه عليها، ولو كان في الظاهر مقدّمهم

والمطاع فيهم... فهو في الظَّاهر رئيس مطاع، وفي الحقيقة عبد مطيع لهم »[1].

وبهذا يعلَم أن الحريَّة التي يزعم ساسة الغرب ومفكِّروه- ومن انخدع بهم من ذراري المسلمين- أنهم أهلها وحماتها والدَّاعون إلى تطبيقها، ليست هي الحريَّة الصَّحيحة التي ينشدها العالم اليوم، بل هي في حقيقتها عبوديَّة مذلَّة لآلهة شتَّى يصعب حصرها. فهي من إطلاق الأسماء على غير مسمَّياتها، كإطلاق (المشروبات الرُّوحيَّة) على (الخمر) التي تُذهِب العقول وتسلب الأرواح والقلوب حياتَها، وكإطلاق (النُّجوم) على من مَسَخُوا الفِطَر، ونَشَرُوا المنكر والفحش من المغنِّين والمغنِّيات والرَّاقصين والرَّاقصات.. وكإطلاق لفظ (الملهمين) و(الرُّوَّاد) على بعض رجال السِّياسة المنحرفة، الذين باعوا العباد والبلاد لأعداء الأمَّة الإسلاميَّة...

*** تنبيه مهمٌّ:**

ومع أن العبوديَّة لله هي الحريَّة الحقّة، وعبوديَّة ما سواه عبوديَّة مذلَّة، فإن الكافر بالله المتَّصف بالعبوديَّة المذلَّة لا يُكرَه على الدخول في الإسلام ليتحرَّر من تلك العبوديَّة المذلَّة، وإنما يبيَّن له الحقّ وتقام عليه الحجَّة، ثم يترك له الخيار بين الحريَّتين، لأن إكراهه على الدخول في الإسلام -بل في أي دين من الأديان- غير ممكن في الواقع، لأن أصل الإيمان في القلب، و لا سلطان لغير الخالق على قلوب العباد، والذي يظهر دخوله في أي دين تحت الإكراه لا يكون مؤمنًا في الحقيقة بذلك الدِّين، ولهذا قال ﷻ: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

و(لا) هنا نافيَّة للجنس أي لا إكراه مشروع ولا إكراه واقع، بمعنى أن الإكراه على اعتقاد الدِّين غير مشروع، ولو حصل إظهار المُكرَه دخوله في الدِّين المكرَه على الدخول فيه فدخوله غير واقع في حقيقة الأمر، لأن الاعتقاد يكون بالقلب، ومن ذا الذي يقدر على إدخال أي دين إلى قلب أي

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيميَّة (١٠ / ١٨٦-١٨٩).

إنسان لا يريده؟ ولهذا عذر تعالى من أظهر الكفر مكرهًا وقلبه مطمئن بالإيمان كما قال ﷻ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾ [النَّحل].

الغاية الخامسة: غرس الإيمان بالغَيْبِ في النُّفوس.

إن الإنسان الذي لا يؤمن إلا بما تدركه حواسُّه، مباشرة أو بالآلات التي يصنعها، لا فرق بينه وبين الحيوان إلا بسعة أفقه، لما ركَّبه الله فيه من عقل وتصرُّف بأدوات تعينه على ذلك، وسعة أفقه هذه التي فرَّقت بينه وبين الحيوان، هي التي أهَّلته لمعرفة ما ظهر له من الكون القريب.

والذي لا يؤمن بالغَيْبِ لا يمكن أن يعبد الله، لأن الإيمان بالله تعالى هو من الإيمان بالغَيْبِ، ولا يُعرَف تعالى إلا بوحيه وبآثار خلقه المشهودة.

والذي لا يؤمن بالغَيْبِ لا يمكن أن يؤمن بالوحي الإلهيِّ والكتب المنزَّلة والرُّسل، ولا باليوم الآخر، ولا بالملائكة المقرَّبين، لأن ذلك كلَّه من الغيب.

وعدم الإيمان بالغَيْبِ يفضي إلى ضياع الإنسان وعدم التزامه بمنهج الله، واتِّباعه لهواه، فيتصرَّف في حياته كما يشاء لا يردُّه عن هواه إلا القوَّة الماديَّة القاهرة، فإذا ظن أن تلك القوَّة - كالشُّرطة والقضاء والعقوبات الرَّادعة - لا تناله، أتى على كل ما يقدر عليه دون مراعاة لحقوق غيره، لأنه لا يؤمن بالله حتى يطمع في ثوابه ويخاف من عقابه، وهكذا يدمِّر ويفسد ولا يبالي شيئًا.

ولهذا كان من أهم غايات أهل الحقِّ في سباقهم إلى العقول غرسُ الإيمان بالغَيْبِ في نفوس النَّاس؛ لتكون أقوالهم وأفعالهم ـ سرًّا وجهرًا ـ محكومةً بأمر الله الذي يعلم السرَّ وأخفى.

ولهذا كانت أول صفات المتَّقين الذين يهتدون بهذا القرآن الكريم: الإيمان بالغَيْبِ، ولا يهتدي به من لم يؤمن بالغَيْبِ، كما قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا

رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾[البقرة: ٢ - ٣].

وقال ﷻ: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾[النِّساء].

الغاية السَّادسة : تحكيم شرع الله في حياة النَّاس.

ومن أهم غايات أهل الحقِّ السَّعي إلى تحكيم شرع الله ﷻ في الحياة، وحكم الله لا يحابي أحدًا: الغنيَّ والفقير، والرَّجل والمرأة، والفرد والجماعة، والحاكم والمحكوم، كلُّهم أمام شرع الله سواء، يُعطِي الحقّ صاحبَه، ويَوقِف صاحبَ الباطل، ويمنعه من باطله.

ولهذا كان تحكيم شرع الله والرِّضا به من الإيمان بالله وتوحيده، وهو من صميم دعوة الرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام، ومن اعتقد غير ذلك لم يفقه معنى القرآن ولا السنَّة ولا دعوة الرُّسُل.

والذي يزعم أنه يدعو إلى التَّوحيد ويهمل دعوة النَّاس إلى تحكيم شرع الله، أو يجعل ذلك من الموضوعات التي يمكن تأخيرها وتأخير بيان حكمها، لم يفهم معنى "لا إله إلا الله"، لأن تحكيم شرع الله من توحيد الألوهيَّة، ومن جوهر "لا إله إلا الله".

والأنبياء عندما يدعون النَّاس إلى التَّوحيد والإقرار بمعنى: "لا إله إلا الله" يعلمون ويعلم أقوامهم أن ذلك يعني تحكيم شرع الله والتَّسليم المطلق لحكمه، وأنه لا خيار لهم في ذلك أبدًا، لأن معنى "لا إله إلا الله" لا يقرُّ حاكمًا على الحقيقة غير الله. فالحاكم المطلق الذي لا معقِّب لحكمه هو الله.

قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الرَّعد].

فهذه الكلمة "لا إله إلا الله" تعني الاستسلام لله في كل شيء: في الأنفس والعقول والأنسال والأعراض والأموال وغيرها، لا يحكم في ذلك كلِّه إلا الله ،

وأي حكم صدر من غير الله يخالف حكم الله فهو حكم باطل، ومن أطاع حكم غير الله ورضي به بدلًا من حكم الله، لم يؤمن بمعنى "لا إله إلا الله" في الحقيقة.

فالإيمان حكم الله ولابدَّ من الرِّضا به، والعبادة حكم الله ولابدَّ من الرِّضا بها، والمعاملات الإسلاميَّة الثَّابتة بنصٍّ من الله أو من رسوله ﷺ حكم الله ولابدَّ من الرِّضا بها، والأخلاق حكم الله ولابدَّ من الرِّضا بها، والحدود حكم الله ولابدَّ من الرِّضا بها، لابدَّ من التَّسليم المطلق لله ﷻ في كل حكم يحكم به.

ومخطِئٌ من يظنُّ أن الرَّسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يَدْع إلى تحكيم شرع الله في العهد المكِّيّ، ويخلط هذه المخطئ بين معنى الدَّعوة إلى تحكيم شرع الله الذي هو من صميم توحيد الله، وبين معنى إقامة دولة تحكم بشرع الله.

فالدَّعوة إلى تحكيم شرع الله والاستسلام له دعوة إلى الإيمان بالله وإلى الإقرار بمعنى "لا إله إلا الله"، وقد قام بها الرَّسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما دعا النَّاس إلى الإقرار بلا إله إلا الله.

وأما إقامة الدُّولة التي تحكم بالإسلام وتنفِّذه على رعاياها، فقد أخَّرها الرَّسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وما كان له إلا أن يؤخِّرها إلى العهد المدنيِّ، حيث قويت شوكة المسلمين، وأصبح الرَّسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو إمامهم في الصَّلاة، وقائدهم في الجهاد، وقاضيهم في الخصومات، والآمر النَّاهي في الدُّولة .

وإنما لم يَسْعَ لإقامة الدُّولة الإسلاميَّة في مكَّة، فلأن الله تعالى لم يأمره بذلك ، ولعلَّ الحكمة في ذلك هو أن أهلها كانوا أهل القوَّة الماديَّة والنفوذ، وكان المسلمون ضعافًا -ماديًّا- مضطهدين، يُفتَنون ويعذَّبون، ولم يكونوا قادرين على ردِّ العدوان بمثله -وإن كانوا يرغبون رغبة شديدة في ذلك- بل نهاهم الله عن قتال المشركين وأمرهم بالكفِّ عن القتال.

وإذا كان كثير من العبادات والمعاملات والحدود وغيرها من الأحكام الشَّرعيَّة، قد تأخَّر نزول الوحي بها إلى العهد المدنيّ، وكان الاهتمام في العهد المكِّيّ بالنواحي الإيمانيَّة والسُّلوكيَّة وبعض العبادات كالصَّلاة ونحوها، فإن الدَّعوة في العهد المكِّيّ اهتمَّت بجانب الاستسلام لله ﷻ في كل شيء، وهو

معنى الإسلام، ومعنى كلمة التَّوحيد، وذلك أصل التَّشريع الإلهيِّ.

ومع ذلك فإن بعض الآيات المكِّيّة قد نزلت تنعَى على المشركين، وتنكر عليهم ما شرعوه لأنفسهم من تحليل ما حرَّم الله أو تحريم ما أحلَّ الله.

كما قال ﷻ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)﴾ [الأنعام].

والشاهد منها هو كونهم يُحِلُّون ما يريدون، ويحرِّمون ما يريدون من عند أنفسهم، بدون هدي ولا بيِّنة من الله، وهو تشريع يعارض تشريع الله، وتحكيم لهواهم الذي يخالف تحكيم شرع الله ﷻ.

وإذا عرفنا أن سورة الأنعام من السُّور المكِّيّة، ومنها هذه الآيات تبيِّن لنا أن الرَّسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمِر بالدَّعوة إلى تحكيم شرع الله في العهد المكِّيّ، وأن تحكيم شرع الله من الإيمان الذي لا تصحُّ شهادة أن لا إله إلا الله إلا به.

ومثل ذلك قوله ﷻ: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩)﴾[الأنعام].

وقد بيَّن الإمام الشَّاطبيُّ في "الموافقات": أن الأصول الكليَّة للشَّريعة قد تضمَّنها القرآن الكريم في العهد المكِّيّ، وأن ما نزل بعد ذلك في العهد المدنيّ من التَّشريع، إنما هو مكمِّل لتلك الأصول المكِّيّة، وأن ما قد يبدو من التَّشريع المدنيّ كليًّا إذا ما تُؤُمِّل حقَّ التأمُّل وجد جزئيًّا بالنِّسبة إلى ما هو أعم

منه، أو تكميلًا لأصل مكيٍّ.

قال رحمه الله: « الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ: فَنَقُولُ: إِذَا رَأَيْتَ فِي المدنيّاتِ أَصْلًا كُلِّيًّا فَتَأَمَّلْهُ تَجِدْهُ جُزْئِيًّا [قال الأستاذ محمد عبد الله دراز في الحاشية: " كالجهاد فهو جزئيٌّ من الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، كما سيقرِّره قريبًا...] بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا هُوَ أَعَمُّ مِنْهُ، أَوْ تَكْمِيلًا لِأَصْلٍ كُلِّيٍّ، [قال دراز: " كالنَّهي عن شرب الخمر تكميلًا لاجتناب الإثم والعدوان كما سيقول....]، وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ الْأُصُولَ الْكُلِّيَّةَ الَّتِي جَاءَتِ الشَّرِيعة بِحِفْظِهَا خَمْسَةٌ، وَهِيَ: الدِّينُ، وَالنَّفس، وَالْعَقْلُ، وَالنَّسْلُ، وَالْمَالُ.

أَمَّا الدِّينُ؛ فَهُوَ أَصْلُ مَا دَعَا إِلَيْهِ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ وَمَا نَشَأَ عَنْهُمَا، وَهُوَ أَوَّلُ مَا نَزَلَ بِمَكَّةَ.

وَأَمَّا النَّفس؛ فَظَاهِرٌ إِنْزَالُ حِفْظِهَا بِمَكَّةَ؛ كقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام] ، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾﴾[التكوير]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]. وأشباه ذلك.

وأَمَّا الْعَقْلُ، فَهُوَ وَإِنْ لَمْ يَرِدْ تَحْرِيمُ مَا يُفْسِدُهُ وَهُوَ الْخَمْرُ إِلَّا بِالْمَدِينَةِ؛ فَقَدْ وَرَدَ فِي المكِّيّاتِ مُجْمَلًا، إِذْ هُوَ دَاخِلٌ فِي حُرْمَةِ حِفْظِ النَّفس كَسَائِرِ الْأَعْضَاءِ، وَمَنَافِعِهَا مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَغَيْرِهِمَا وَكَذَلِكَ مَنَافِعُهَا؛ فَالْعَقْلُ مَحْفُوظٌ شَرْعًا فِي الْأُصُولِ المكِّيّةِ عَمَّا يُزِيلُهُ رَأْسًا كَسَائِرِ الْأَعْضَاءِ [وَإِنَّمَا اسْتُدْرِكَ بِالْمَدِينَةِ حِفْظُهُ عَمَّا يُزِيلُهُ] سَاعَةً أَوْ لَحْظَةً، ثُمَّ يَعُودُ كأنه غُطِّي ثمَّ كُشِفَ عَنْهُ...

وأما النَّسْلُ؛ فَقَدْ وَرَدَ المكِّيّ مِنَ الْقُرْآنِ بِتَحْرِيمِ الزِّنا، وَالْأَمْرِ بِحِفْظِ الْفُرُوجِ إِلَّا عَلَى الْأَزْوَاجِ أَوْ مِلْكِ الْيَمِينِ.

وَأَمَّا الْمَالُ؛ فَوَرَدَ فِيهِ تَحْرِيمُ الظُّلم، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالْإِسْرَافِ، وَالْبَغْيِ وَنَقْصِ المكِّيّال والميزان، وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَمَا دَارَ بِهَذَا الْمَعْنَى.

وَأَمَّا الْعِرْضُ الْمُلْحَقُ بِهَا فَدَاخِلٌ تَحْتَ النَّهْيِ عَنْ أَذِيَّاتِ النُّفوس.

وَلَمْ تَرِدْ هَذِهِ الْأُمُورُ فِي الْحِفْظِ مِنْ جَانِبِ الْعَدَمِ إِلَّا وَحِفْظُهَا من جانب الوجود حاصل؛ ففي الأربع الأواخر ظاهر، وأما الدِّينُ فَرَاجِعٌ إِلَى التَّصْدِيقِ بِالْقَلْبِ وَالِانْقِيَادِ بِالْجَوَارِحِ ، وَالتَّصْدِيقُ بِالْقَلْبِ آتٍ بِالْمَقْصُودِ فِي الْإِيمَانِ بِاللهَّ ورسوله واليوم الآخر؛ ليتفرَّع عَنْ ذَلِكَ كُلُّ مَا جَاءَ مُفَصَّلًا فِي المدنيّ؛ فَالْأَصْلُ وَارِدٌ فِي المكِّيّ، وَالِانْقِيَادُ بِالْجَوَارِحِ حَاصِلٌ بِوَجْهٍ وَاحِدٍ، [قال دراز: أي متى وجد تكليف واحد بدنيٌّ فإنه يتحقَّق به معنى كليّ الانقياد بالجوارح الذي هو أحد ركني الدِّين]، وَيَكُونُ مَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ تَكْمِيلًا.

وَقَدْ جَاءَ فِي المكِّيّ مِنْ ذَلِكَ النُّطْقُ بِالشَّهَادَتَيْنِ، وَالصَّلاة، وَالزَّكَاةُ، وَذَلِكَ يَحْصُلُ بِهِ مَعْنَى الِانْقِيَادِ، وَأَمَّا الصَّوْمُ وَالْحَجُّ؛ فَمَدَنِيَّانِ مِنْ بَابِ التَّكْمِيلِ، عَلَى أَنَّ الْحَجَّ كَانَ مِنْ فِعْلِ الْعَرَبِ أَوَّلًا وِرَاثَةً عَنْ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ؛ فَجَاءَ الْإِسْلَامُ فَأَصْلَحَ مِنْهُ مَا أَفْسَدُوا، وردَّهُم فيه إلى مشاعِرِهم

وَكَذَلِكَ الصِّيَامُ أَيْضًا؛ فَقَدْ كَانَتِ الْجَاهِلِيَّةُ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، وَكَانَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصُومُهُ أَيْضًا، حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ صَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ حَتَّى نَسَخَهُ رَمَضَانُ، وَانْظُرْ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فِي صِيَامِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ؛ فَأَحْكَمَهُمَا التَّشريع المدنيّ، وأقرَّهُما على ما أرادَ اللهُ تَعَالَى مِنَ التَّمَامِ الَّذِي بَيَّنَهُ فِي الْيَوْمِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ أَيَّامِهِ حِينَ قَالَ تعالى ﷻ: ﴿ **ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا** ﴾[المائدة: ٣]. فَلَهُمَا أَصْلٌ فِي المكِّيّ عَلَى الْجُمْلَةِ.

وَالْجِهَادُ الَّذِي شُرِعَ بِالْمَدِينَةِ فَرْعٌ مِنْ فُرُوعِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَهُوَ مُقَرَّرٌ بِمَكَّةَ؛ كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿ **يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ** ﴾ [لقمان: ١٧] وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ »[1].

وإذا علم أن أصول الشَّريعة الكليَّة قد نزلت في العهد المكِّيّ، وما نزل في

---

(١) الموافقات ، لأبي إسحاق الشَّاطبيِّ (٣/ ٤٦-٥٠)

العهد المدنيّ فهو متمِّم أو مفصِّل لها، علم أن الدَّعوة إلى التَّشريع الإسلاميِّ والدَّعوة إلى تحكيم شرع الله ﷻ، من صميم الرِّسالة، وأنها من الإيمان بالله ﷻ، وأن من اعتقد أن تحكيم شرع الله ليس من صميم التَّوحيد والإيمان فهو ضالٌّ جاهل لا يعلم دين الله حقَّ العلم ولا يفقه حقَّ الفقه، وفيما مضى كفاية لطالب الحقّ.

وهكذا كان أنبياء الله السَّابقون يدعون أقوامهم إلى تحكيم شرع الله ﷻ، تطبيقًا لمعنى لا إله إلا الله، فشعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، دعا قومه إلى توحيد الله وإلى تحكيم شرعه الذي هو من التَّوحيد في الكَيل والوزن، وغير ذلك من الحقوق الماليَّة، فأنكر عليه قومه تدخُّله في شؤون حياتهم وبخاصَّة الماليَّة، وهو نهج العلمانيِّين في كل زمان، لا يستقرُّ لهم قرار بوجود من يدعو إلى تحكيم شرع الله ﷻ في حياة البشر، لأن ذلك يحرمهم من اتِّباع أهوائهم وتحقيق شهواتهم، عن طريق تشريعهم لأنفسهم ما يحقِّق لهم تلك الشَّهوات.

قال ﷻ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود].

أمرهم نبيُّهم بالاستسلام الكامل لله ﷻ في الإيمان والتصرُّف في الأموال، وكانوا عند ذلك كفَّارًا، ولو كان التَّشريع من عند أنفسهم في الأموال لا يدخل في الإيمان بلا إله إلا الله، لأخَّر الدَّعوة إليه حتى يؤمنوا بالله وحده، ولكن التَّشريع من الإيمان، ولذلك جعله في دعوته قومَه إلى الله من أولويَّات تلك الدَّعوة، وفهموا منها أن التَّسليم المطلق لله يقتضي ترك عبادة غير الله والتُّقيد بشرع الله في تصرُّفاتهم.

وتأتي بعد ذلك الآيات المدنيّة، لتوضِّح توضيحًا وافيًا شافيًا قضايا عمليَّة تقرِّر فيها أن أعداء الإسلام من المنافقين -وهم الذين يمثِّلهم اليوم

العلمانيُّون الذين يحاربون الإسلام- لما لم يرضوا بتحكيم شرع الله ﷻ ورضوا بحكم غيره، حكم الله عليهم بالضّلال البعيد مع ادِّعائهم أنهم مؤمنون، ووصْفُ الضَّلال بالبعيد يدلُّ على أنه ليس ضلال مؤمن يغفره الله له، وتدبَّر معي قوله ﷻ : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾[النِّساء].

وهذه الآية الأخيرة ذكر بعض العلماء أنها نزلت في الزُّبير بن العوَّام وخصم له من الأنصار، اختصما إلى النَّبيّ ﷺ في بعض الأمر، ومعنى ذلك أنها نزلت في مسلمين، وبذلك يكون الإيمان المنفيُّ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[النِّساء:٦٥] هو كمال الإيمان الواجب، وليس أصل الإيمان.

وقال آخرون: إنها نزلت في شأن منافق ويهوديٍّ اختصما، وأن اليهوديَّ أراد الاحتكام إلى الرَّسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمنافق أراد الاحتكام إلى غيره [1].

قال ابن القيِّم، رَحِمَهُ اللَّهُ:

« وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْحُكْمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ الله يَتَنَاوَلُ الْكُفْرَيْنِ، الْأَصْغَرَ وَالْأَكْبَرَ بِحَسَبِ حَالِ الْحَاكِمِ، فَإِنَّهُ إِنِ اعْتَقَدَ وُجُوبَ الْحُكْمِ بِمَا أَنْزَلَ الله فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ، وَعَدَلَ عَنْهُ عِصْيَانًا، مَعَ اعْتِرَافِهِ بِأَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِلْعُقُوبَةِ، فَهَذَا كُفْرٌ أَصْغَرُ، وَإِنِ اعْتَقَدَ أَنَّهُ غَيْرُ وَاجِبٍ، وَأَنَّهُ مُخَيَّرٌ فِيهِ، مَعَ تَيَقُّنِهِ أَنَّهُ حُكْمُ الله، فَهَذَا كُفْرٌ أَكْبَرُ، وَإِنْ جَهِلَهُ وَأَخْطَأَهُ فَهَذَا مُخْطِئٌ، لَهُ حُكْمُ الْمُخْطِئِينَ. »[2].

فشرع الله فيه الخير كله بلا ريب ، وشرع غيره فيه ما فيه من النُّقصان

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٣٤٩).

(٢) مدارج السَّالكين، لابن القيم (١/ ٣٣٦).

والظُّلم والزَّلل، وصدق ربُّنا ﷻ: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة].

الغاية السَّابعة: تثبيت الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، والبراء من أعدائهم.

ومن غايات أهل الحقِّ غرس الولاء وتثبيته لله ولرسوله وللمؤمنين، والبراء من كل من حادَّ الله ورسوله والمؤمنين، عملًا بقوله ﷻ: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة].

ولعلمهم بأن هذا الولاء يجعل صاحبه يدور مع الحقِّ حيث دار ولو خالفه في ذلك أقرب المقرَّبين إليه، كأبيه وابنه.

ولأن المنهج الربانيَّ الذي جاء به الرَّسُول من عند ربه هو الحقّ، وكل ما خالفه فهو الباطل، والأصل في المؤمنين بهذا المنهج أن يكونوا على الحقّ. فالولاء لله ولرسوله وللمؤمنين هو ولاء للحقِّ.

ولأن الحقّ يقوى ويثبت في الأرض بكثرة الموالين له المتناصرين عليه. فإذا قوي الحقّ وثبت سعِد به أهل الأرض واهتدوا وكثر فيهم الصَّلاح الذي أساسه اتِّباع الحقِّ، كما قال ﷻ: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾[التَّوبة: ٣٣].

وبثبات الحقّ يَضْمَحِلُّ الفساد الذي أساسه اتِّباع الهوى ، كما قال ﷻ: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۚ ﴾ [المؤمنون: ٧١]

ومن أمثال القرآن على ثبات الحقّ وما يترتَّب عليه من صلاح، واضمحلال

الباطل وما يترتَّب على وجوده من فساد قوله ﷻ: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرَّعد].

وغنيٌّ عن البيان أن أهل الحقِّ -رُعَاةً ورَعِيَّةً- لا يخشون من الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، اعتداءً من قويٍّ على ضعيف، أو خروجًا من رعيَّة على راع، بل ولا يخشى أهل الباطل من ولاء المؤمنين لله ورسوله ظلمًا ولا هضمًا ولاً عدوانًا، لأن الله بعث رسوله بالحقِّ الذي يعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه.

فالمؤمنون يتعاونون على البرِّ والتَّقوى وينصر قويُّهم ضعيفَهم: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال النبيُّ ﷺ: [الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا][1].

ويقيمون العدل فيما بينهم، وفيما بينهم وبين عدوِّهم، كما مضى في مثل قوله ﷻ: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨].

الغاية الثَّامنة: غرس الأخلاق الفاضلة في النُّفوس.

الجانب الخُلُقيُّ في الإنسان هو الذي يحدِّد موقع صاحبه أهو إنسان حقًّا أم أنه أحطُّ من رتبة الحيوان؟!

ولهذا كان أئمَّة أهل الحقِّ الذين يسابقون غيرهم من أهل الباطل بالحقّ إلى العقول، هم منبع الأخلاق الفاضلة وقدوة البشر فيها، ولهذا وصف الله تعالى خاتم رسله محمدًا ﷺ بهذا الوصف العالي ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم: ٤].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري برقم (٤٦٧)، ومسلم برقم (٢٥٨٥).

وعندما سأل سعد بن هشام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن خلق النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: " يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ الله. قَالَتْ أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ بَلَى. قَالَتْ فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ الْقُرْآنَ"(١).

وهذا الجواب المختصر الجامع يدلُّ على أن تصرُّفات الرَّسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته سواء في علاقته مع ربِّه أو مع النَّاس قريبهم وبعيدهم كانت محكومة بالقرآن، فإذا سمع النَّاس قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو رأوا فعله، علموا معاني القرآن الكريم، فكأن القرآن ينطق بلسانه ويتحرَّك بحركته، ولهذا كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القدوة الحسنة لأمَّته: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب] ، والأخلاق الفاضلة في الإسلام شاملة لنشاط المؤمن كله باطنه وظاهره، وليست مقصورة على تصرُّفات محدودة، ويدلُّ على هذا الشُّمول جواب عائشة السابق: "كان خلُقه القرآن.."

ويمتاز اتِّصاف أهل الحقِّ بالأخلاق الفاضلة عن سواهم من أهل الباطل بأمور:

الأمر الأول: إيمان أهل الحقِّ بمشروعيَّة تلك الأخلاق الفاضلة إيمانًا صادرًا عن شرع ربانيٍّ، أي إنها أخلاق مشروعة من عند الله عَزَّ وَجَلَّ، فهو الذي شرعها ورضي بها وإن كانت العقول السليمة تقرُّ بأن تلك الأخلاق حميدة والاتِّصاف بها خير.

الأمر الثَّاني: أن أهل الحقِّ يتَّصفون بتلك الأخلاق طمعًا في رضا الله عَزَّ وَجَلَّ وهرباً من سخطه عَزَّ وَجَلَّ، ويرجون عليها ثوابه بدخول الجنَّة، والنجاة من النار.

الأمر الثَّالث: أن أهل الحقِّ يثبتون على الالتزام بتلك الأخلاق على كل حال، ويتَّخذون اتِّصافهم بها عبادة لربِّهم، فاتِّصافهم بالأخلاق الفاضلة

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٧٧٣).

ثابت ودائم، وليس تابعًا للأهواء يتقلَّب بتقلُّبها ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

الأمر الرَّابع: أن أهل الحقِّ الذين يتَّصفون بتلك الأخلاق الفاضلة يحبُّون لجميع النَّاس أن يتَّصفوا بها مثلهم من أجل سعادتهم بها، ولذلك يسعى أهل الحقِّ سعيًا حثيثًا لدعوة النَّاس إلى الاتِّصاف بها والتَّمتُّع بثمراتها، كما يسعَون إلى إزالة كل خلق سيِّئ يفسد حياة البشر، وينشر بينهم الضَّلال والفحش والمنكر.

الغاية التَّاسعة: من غايات أهل الحقِّ: طلبُ العِزَّة من الله ﷻ وحدَه.

لقد سمَّى الله ﷻ نفسه العزيز في آيات كثيرة من كتابه الكريم، ومعناه القويّ الغالب الذي يَغلِب ولا يُغلَب، ويَقهَر ولا يُقهَر.

كما قال ﷻ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النِّساء].

وقال ﷻ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴿١٠﴾﴾ [فاطر].

وقال ﷻ ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ [يونس].

وفي حديث الْحَسَنِ بنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: عَلَّمَنِي رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي قُنُوتِ الْوِتْرِ: **[اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ وَإِنَّهُ لا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ ولا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ]**(١).

فمن أراد العِزَّة فليعبد ربَّ العِزَّة وليطلبها منه وحدَه، ومن عبده حقَّ عبادته وطلب منه العِزَّة أعزَّه، ومن أطاع غيره في معصيته ﷻ طالبًا العِزَّة من ذلك الغير أذلَّه الله.

لهذا كان من غايات أهل الحقِّ أن يطلب عبادُ الله العِزَّة من الله، لا من سواه.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (١٢١٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

وإن هذه الغاية التي يسعى إليها أهل الحقِّ، لتبيِّن لنا سبب الذِّلة التي أنزلها الله ﷻ بالمسلمين في هذا العصر، حيث طلبوا العِزَّة من أعداء الله ورسوله من اليهود والنَّصارى والمشركين، ونسوا رب العِزَّة العزيز الحكيم، فنسيهم!

الغاية العاشرة: إقامة الخلافة في الأرض على أساس هدى الله ﷻ.

لقد استخلف الله ﷻ بني آدم في الأرض ابتلاء لهم، ليجزي من قام بحقِّ هذا الاستخلاف ما يستحقُّه من الجزاء الحسن في الدُّنيا والآخرة، وينزل بمن عاد على هذا الاستخلاف بالنَّقض عقابه الشَّديد، كما قال ﷻ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام].

والمراد بالخلافة هنا: استغلال خيرات السَّماوات والأرض التي سخَّرها الله ﷻ لخلقه، في جلب المصالح لكل مخلوق من إنسان وغيره، ودفع المفاسد كذلك عن كل مخلوق من إنسان وغيره، وعمارة الأرض ماديًّا بما أودع الله فيها من النِّعم العظيمة، ومعنويًّا باتِّباع منهجه وهداه الذي أنزله على رسله لدعوة النَّاس إلى صراطه المستقيم.

فمن استغلَّ تلك الخيرات وذلك التَّسخير وعمَّر بهما الأرض، وقام بطاعة الله واتَّبع هداه، فقد حقَّق هذه الغاية، وقام بالخلافة على هدى من الله، وعاش في دنياه عيشة رضًا وسعادة واطمئنان، ونال في آخرته ثواب ربِّه الجزيل في جنَّات عدن التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

قال ﷻ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾[الأعراف].

ومن استغلَّ تلك الخيرات معرضًا عن هدى الله خارجًا عن طاعته، نال من دنياه ما كتب الله له، وعاش في الأرض عيشة ضَنْك ونكَد، ونال في الآخرة عقابه في نار جهنَّم على ما قدم، جزاءً وفاقًا.

قال ﷻ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾[فاطر] .

فمَن أحقُّ أن تكون غايته هي الأسمى -إذًا- أهل الحقِّ أم أهل الباطل؟

تلك هي غايات أهل الحقِّ:

١- تبليغ رسالات الله إلى النَّاس.

٢- إقامة الحُجَّة على الخلق.

٣- إخراج النَّاس من الظُّلمات إلى النُّور.

٤- تحقيق توحيد الله في الأرض، وعدم الإشراك به.

٥- غرس الإيمان بالغَيْبِ في النُّفوس.

٦- تحكيم شرع الله في حياة النَّاس.

٧- تثبيت الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، والبراء من أعدائهم.

٨- غرس الأخلاق الفاضلة في النُّفوس.

٩- طلب العزَّة من الله تعالى وحده .

١٠- إقامة الخلافة في الأرض على أساس هدى الله ﷻ.

وبتحقيق هذه الغايات يتحقَّق المقصد العامُّ من التَّشريع الإسلاميِّ كلِّه، وهو "حفظ نظام الأمَّة واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه، وهو نوع الإنسان، ويشمل صلاحُه: صلاحَ عقله وصلاحَ عمله، وصلاحَ ما بين يديه من موجودات العالم الذي يعيش فيه"[1].

هذا في الدُّنيا، وأما في الآخرة فالجنَّة تنتظر كل عبد صالح التزم شرع ربِّه ﷻ ، وهدي نبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثانيًا: غايات أهل الباطل

وكما أن لأهل الحقِّ غايات، فإن لأهل الباطل كذلك غايات في سباقهم

---

(١) انظر كتاب: مقاصد الشَّريعة، لفضيلة العلامة الأستاذ/ محمد الطَّاهر بن عاشور، صـ٦٣.

بباطلهم، وقد لا يصرِّحون بتلك الغايات، ولكن أعمالهم وتصرُّفاتهم تدلُّ على غاياتهم.

ولنذكر أهمَّ غاياتهم تلك إجمالًا، ثم نشرع في تفصيلها:

الغاية الأولى: التَّمتُّع المطلق بكل ما في الحياة الدُّنيا.

الغاية الثَّانية: الصَّدُّ عن سبيل الله.

الغاية الثَّالثة: تكذيب الرُّسُل والكفر بالوحي.

الغاية الرَّابعة: الحَوْلُ بين النَّاس وبين إقامة الحُجَّة عليهم.

الغاية الخامسة: إخراج النَّاس من النُّور إلى الظُّلمات.

الغاية السَّادسة: إحلال الشِّرك محل التَّوحيد.

الغاية السابعة: إنكار الإيمان بالغَيْبِ والصَّدُّ عنه.

الغاية الثَّامنة: نبذ الحكم بما أنزل الله ومحاربته.

الغاية التَّاسعة: محاربة الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين.

الغاية العاشرة: غرس الأخلاق الفاسدة في نفوس النَّاس.

الغاية الحادية عشرة: الإفساد في الأرض.

وإليك تفصيل تلك الغايات:

الغاية الأولى: التَّمتُّع المطلَق بكل ما في الحياة الدُّنيا.

وكلمة: المطلق هنا مقصودة، لأن أهل الحقِّ يتمتَّعون بكثير مما يتمتَّع به أهل الباطل، من مأكل ومشرب ومنكح ومسكن ومركب ومنصب وجاه، وغير ذلك، ولكن تمتُّع أهل الحقِّ بذلك ليس تمتُّعًا مطلقًا، وإنما هو مقيَّد بما أذن الله فيه وشرعه.

بخلاف أهل الباطل، فإنهم يتمتَّعون بكل ما في الأرض تمتُّعًا مطلقًا، أي خاليًا من كل قيد، من دين أو خلق، ولا يقيِّدهم إلا قيد واحد فقط، وهو عدم القدرة على تناول ما يشتهون.

وهذه الغاية لا تتحقَّق لهم إلا إذا كثر أهل الباطل كثرة لا تدع مجالًا لأهل

الحقِّ في صدِّهم عن الوصول إلى غاياتهم تلك، ولذلك فهم يسعَون جادِّين في سباقهم إلى عقول النَّاس، ليكسبوا أكبر عدد منهم، ليقفوا في صفِّهم للوصول إلى غاياتهم تلك، وصدِّ من يحاول منعهم منها.

وقد أبرز الله ﷻ هذه الغاية في كتابه، والواقع يشهد بها، قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾﴾[محمد].

وقال ﷻ: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [الحجر].

وقال ﷻ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾[آل عمران] .

وفي هذه الآيات يهدِّد الله ﷻ الكافرين الذين جعلوا غايتهم التَّمتُّع بالحياة الدُّنيا، وحرصوا على تحقيق هذا التَّمتُّع الذي ألهاهم عن عبادة الله وطاعته وطاعة رسله بما ينتظرهم من جزاء يوم القيامة.

وهذا التَّمتُّع له صور عديدة منها:

١ـ الاستعلاء والتكبُّر على النَّاس.

٢ـ الاغترار بالعلم الدُّنيويّ والجاه والمال، ولنا أسوة في فرعون وقارون ومآلهما المرعِب.

الغاية الثانيَّة: الصَّدُّ عن سبيل الله.

هذه هي الغاية الرَّئيسة الثَّانية التي يريد أهل الباطل تحقيقها ، وهي الصَّدُّ عن سبيل الله ومحاربة الحقّ وأهله، ونصر الباطل وتثبيته في الأرض، أي تحقيق كلِّ ما يضادُّ غايات أهل الحقِّ ويخالفها من غايات.

وقد أوضح القرآن الكريم في آيات كثيرة منه أن أهل الباطل كلَّهم يصدُّون عن سبيل الله.

وفعل: "صَدَّ" يأتي لازمًا، ومعناه انصراف الصَّادِّ عن الشَّيء والامتناع

من قبوله، ويأتي متعدِّيًا، ومعناه صرف غيره عن الشَّيء وعن قبوله، ولا يصرف الإنسان غيره عن الحقّ إلا إذا كان هو نفسه قد انصرف عنه، لأن صاحب الحقّ لا ينصرف عنه ولا يصرف غيره.

قال ﷻ عن أهل الكتاب: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾[آل عمران].

وقال ﷻ عن علمائهم وعبَّادهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

وقال ﷻ عن اليهود منهم: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾[النساء].

وقال ﷻ عن المشركين: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النَّحل].

وقال ﷻ عن المنافقين- نفاق الاعتقاد-: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النِّساء].

الغاية الثَّالثة: تكذيب الرُّسُل والكفر بالوحي.

إن أقوى وسيلة يتمكَّن بها أهل الباطل من الخلاص من التقيُّد بدين الله، ومن الاستجابة لرسله، عليهم الصَّلاة والسَّلام، هي: تكذيب أولئك الرُّسُل في دعواهم أن الله ﷻ بعثهم إلى الخلق لهدايتهم بوحيه، ووصف أولئك الرُّسُل بضدِّ ما يتَّصفون به من الصِّفات الحميدة التي أهّلتهم لاختيار الله ﷻ لهم رسلًا إلى النَّاس، فيصفونهم بالضَّلال بدل الهدى، وبالسَّفه بدل الرَّشد، وبالجنون بدل كمال العقول، ويجعلونهم محلًّا للسُّخرية والاستهزاء بدلًا من

الاحترام والتَّوقير.

وينعتون الوحي الذي أنزله الله ﷻ عليهم وجميع الكتب السماويَّة التي نزل بها جبريل من عند الله ﷻ وآخرها القرآن الكريم بأنها أساطير الأوَّلين وبأنها كذب وافتراء.

قال ﷻ عن فرعون وقومه في موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[الذّاريات].

وأخبر ﷻ أن دأب الأمم المكذِّبة لرسله ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ في كل الأزمان، هو الاستهزاء والسُّخرية بهم، كما قال ﷻ: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[يس].

وقال ﷻ: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[الذَّاريات].

الغاية الرَّابعة: الحَوْل بين النَّاس وبين إقامة الحجَّة عليهم.

ويحصل ذلك بإعراض قادة الباطل عن سماع الحقّ الذي يأتي به أهله، وبحَضِّ غيرهم على الإعراض عن حجج الحقّ وتدبُّرها والإصغاء إليها، بل وأمرهم بإحداث اللَّغَط والضَّوضاء عندما يدعو أهل الحقِّ إليه، كما قال ﷻ عنهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصِّلت].

وقال ﷻ: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾[فصِّلت].

وليس من شرط هذا الحوْل وتحقُّقه أن يصرِّح أهل الباطل بمثل ما دلَّت عليه الآيتان المذكورتان، فيقولوا: لا تسمعوا كلام الدُّعاة إلى الله، أو أن على قلوبنا أغطية لا يصل إليها ما يدعون إليه، بل يتحقَّق بكل سبيل يؤدِّي إلى ذلك

الحول، كوضع مناهج تعليميَّة، أو برامج إعلاميَّة، أو نوادٍ ثقافيَّة، أو دور سينما، أو غيرها مما يُلْهي النَّاس ويشغلهم عن سماع الحقِّ وحُجَجِه ودلائله، وهذا الأسلوب أشدُّ تأثيرًا في النَّاس من الأمر الصَّريح بالإعراض عن الحقّ.

الغاية الخامسة: إخراج النَّاس من النُّور إلى الظُّلمات.

كما قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾[البقرة: ٢٥٧].

الغاية السَّادسة: إحلال الشِّرك محلَّ التَّوحيد.

ويكون ذلك بتقديس الطَّواغيت التي تنصب نفسها أو ينصبها غيرها آلهة للبشر، سواء أكانت قبورًا أو حجارة أو أشجارًا أو حيوانات، أو هي من علماء السُّوء الذين يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا، كما فعل علماء اليهود من قبل. قال ﷻ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة].

وقال ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التَّوبة].

وإنَّما كان اتِّخاذهم إيَّاهم أربابًا من دون الله، لاتِّباعهم في تحليل ما حرَّم الله أو تحريم ما أحلَّ الله، كما وردت بذلك السنَّة في تفسير الآية السَّابقة.

الغاية السَّابعة: إنكار الإيمان بالغَيْبِ والصَّدُّ عنه.

ومعلوم أن الإيمان بالغَيْبِ هو أساس التَّسليم المطلق لله ﷻ في أمره ونهيه والدَّيْنونة له، لهذا يحرص أهل الباطل على إنكاره، لما في ذلك الإنكار من

إبطال الوحي والرِّسالة من أساسها ، وما يتبع ذلك من محاربة لله ورسوله ﷺ، وكذلك من قَبله من إخوانه المرسلين ، وتقليل أتباعهم ، وتكثير سواد أهل الباطل الذين يقفون ضدَّ دعوة الرُّسُل.

ولهذا يتذرَّع أهل الباطل إلى إنكار هذا الأساس بطلبهم آيات ماديَّة يأتي بها الرُّسُل، للدَّلالة على صدقهم في دعوى الرِّسالة، مع أنهم مهما جاءتهم من آيات ماديَّة لم تزدهم إلا جحودًا واستكبارًا.

فقد أوهم فرعون أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يدعوهم إلى ربٍّ غير موجود ، وأنه كاذب -حاشاه- في دعواه الرِّسالة، مع ما أنزل الله من الآيات العظيمة المؤيِّدة لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على فرعون وقومه ، وكلها آيات ماديَّة، فجحدها مع يقينه أنها من عند الله. فقال ﷻ في ذلك: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾[القصص].

وقال ﷻ عن بني إسرائيل وقد شرَّفهم الله ﷻ ببعث موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رسولًا منهم إليهم ، وأنزل عليهم التَّوراة ، وفضَّلهم على كثير من العالمين- في زمانهم- وأخرجهم من استعباد فرعون وظلمه لهم: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [البقرة].

وقال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء] .

الغاية الثَّامنة: نَبْذ الحكم بما أنزل الله ومحاربته.

والمقصد من ذلك أن تَحْكُمَ النَّاس أهواءُ أهل الباطل ورغباتُهم التي يصوغونها في صورة قوانين وأعراف وأنظمة تصادم شريعة الله، لأن نبذ الحكم بشرع الله وتحكيمَ ما يلبِّي رغباتهم وأهواءهم، يسهِّل عليهم استعباد النَّاس بتشريعهم، فيتصرَّفون في أنفسهم وأعراضهم وعقولهم وأموالهم كما يشاءون بعيدًا عن شريعة الله التي تحفظ للنَّاس كل ذلك، إضافة إلى التَّلاعُب بالدِّين وإضاعته.

قال ﷻ عن قوم شُعَيب - وهو يأمرهم بأمر الله وينهاهم بنهيه - : ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود].

وقال ﷻ عن قوم لوط -وقد نهاهم عن ارتكاب الفاحشة التي لم يسبقهم إليها من أحد من العالمين، مع نهيهم عن الشِّرك بالله-: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النَّمل] .

وقال ﷻ عن المنافقين- وهم الذين يمثِّلهم اليوم كل من يحارب الحكم بشرع الله، والدَّعوة إليه - : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النِّساء] .

الغاية التَّاسعة: محاربة الولاء لله ولرسوله والمؤمنين.

يسارع أهل الباطل في محاربة الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، وتثبيته

للشَّيطان وأتباعه، وللأهواء التي يتَّبعونها، لعلمهم بأن الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين ولاء للحقِّ، والولاء للحقِّ يسلبهم ولاء النَّاس للباطل الذي لا يملكون سواه، ولا حياة لهم بدون أنصار يؤمنون بباطلهم ويؤيِّدونهم عليه.

ولهذا ترى أهل الباطل يحاربون من يوالي الله ورسوله والمؤمنين، ولا يُظْهِرُ ولاءه لهم ولباطلهم، حربًا شَعْواء، كما يحاربون كل دعوة إلى هذا الولاء، خوفًا من أن يكثر أنصار الحقّ وأولياؤه، ويقلَّ أنصار الباطل وأولياؤه، فيخسرون بذلك الجاه والمال والمنصب، وينتهي تسلُّطهم على رقاب النَّاس وطغيانهم، ويقرِّبون من يواليهم على باطلهم، ويرفعون منزلته بالجاه والمال والمنصب، مع العلم أن الذي يكون ولاؤه لغير الحقّ لا يثبت ولاؤه ولا يدوم، لأنه إنما يوالي من رأى أن في موالاته مصلحة ماديَّة، فإذا ظنَّ أن تلك المصلحة ستنقطع، أو أنه سينال مصلحة أعظم منها من صاحب باطل آخر، نقل ولاءه لهذا وأصبح عدوًّا لمن سبق أن كان موالِيًا له.!

الغاية العاشرة: غرس الأخلاق الفاسدة في نفوس النَّاس.

ومن أهم غايات أهل الباطل، تمكين الأخلاق الفاسدة وإشاعتها بين النَّاس في الأرض، ومطاردة الأخلاق الفاضلة وأهلها والتَّضييق عليهم، لتَأْسَنَ الأرض، وتفسد الحياة، تحقيقًا لإشباع شهواتهم ونزواتهم التي لا تتحقَّق مع وجود الأخلاق الفاضلة وغلبتها، كما قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النِّساء].

وبنظرة عُجْلَى إلى أحوال الأمم اليوم -بما فيها أغلب الشُّعوب الإسلاميَّة- يتَّضح للنَّاظر ما تعانيه البشريَّة من الأخلاق الفاسدة، وما جنى به عليها دعاة الباطل الذين يحاربون الأخلاق الفاضلة بكل الوسائل والإمكانات، ويثبِّتون الأخلاق الفاسدة وينشرونها كذلك.

ويتَّضح للنَّاظر كذلك حاجة العالم اليوم إلى سباق أهل الحقِّ بأخلاقهم الفاضلة، إلى عقول النَّاس، لينقذوا البشريَّة من الأخلاق الفاسدة التي اتَّخذ أهل الباطل كل الوسائل ليسبقوا بها إلى عقول النَّاس الذين ذاقوا من جرَّاء ذلك شتَّى أنواع العذاب في الدُّنيا، مع ما ينتظرهم من مقت الله وغضبه في الآخرة .

الغاية الحاديَّة عشرة: الإفساد في الأرض.

أراد الله ﷻ من عباده أن يُصلحوا في الأرض، ولا يُفسدوا، لأن الإفساد في الأرض يعود على استخلاف الله ﷻ للإنسان والغرض منه بالنَّقض، ولكنَّ أهل الباطل – كعادتهم - لا ترضى نفوسهم بالصَّلاح والإصلاح، فيجتهدون في الإكثار من الإفساد فيها ، ويسمُّون إفسادهم إصلاحًا.

ويشمل ذلك الإفساد: النَّسل والنَّفس والعقل والمال، إضافة إلى إفساد الدِّين، يستغلُّون خيرات الأرض وبركات السَّماء، لنشر فسادهم وظلمهم، وإنزال الرعب على الآمنين، واستعباد النَّاس وإذلالهم والتكبُّر عليهم، كما قال ﷻ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [البقرة].

وقال ﷻ: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾[البقرة].

* **خلاصة القول:**

وبالمقارنة بين غايات أهل الحقِّ بحقِّهم، وبين غايات أهل الباطل بباطلهم، يُعلم ما يثمره كلُّ من الفريقين في حياة النَّاس أفرادًا وأُسَرًا وأممًا ودولًا.

فعندما يسبق أهل الحقِّ بحقِّهم إلى عقول النَّاس، تتحقَّق في الأرض غاياتهم من سعادة وأمن على الدِّين والنَّسل والعرض والعقل والنَّفس

والمال، وهي الضَّرورات التي لا حياة على الحقيقة إلا بحفظها، وما يكملها من حاجيَّات وتكميليَّات.

وعندما يسبق أهل الباطل بباطلهم إلى عقول النَّاس تتحقَّق في الأرض غاياتهم، من شقاء وخوف ونكد بضياع تلك الضَّرورات وما يكملها، كما هو حال العالم اليوم الذي تقدَّم فيه أهل الباطل بباطلهم، وتأخُّر أهل الحقِّ بحقِّهم[1].

****

(١) انظر: السِّباق إلى العقول، د/ عبد الله القادري الأهدل.